أبو بكر القادري
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قاسم الزهيري
وإخاء سبعين سنة

مسيرة حياة في النضال الوطني والسياسي والصحافي

رجال عرفتهم
جزء 14

صديق العمر المرحوم، قاسم الزهيري، كما عرفته

لا أكون مبالغا إذا ما قلت، إن المرحوم قاسم الزهيري صديق العمر، فلقد صادقته مدة تزيد عن السبعين سنة، لم يتغير عن صداقته فيها، ولم يحصل بيني وبينه خلالها، ما يكدر الصفو، أو يوجب القطيعة، أو يفصم العرى التي كانت بيني وبينه، عرفته شابا ناشئا في نحو الخمسة عشرة من عمره، وعرفته شابا نشيطا يتقد غيرة وحماسا ووطنية، وعرفته كهلا ناضجا، يتحمل المسؤوليات المختلفة، والمهمات المتعددة، وعرفته في بداية شيخوخته، وقد تجاوز الثمانين من عمره بقليل، فأصابته بعض الأمراض الخفيفة، بقي يعاني منها إلى أن لقي ربه راضيا مرضيا رحمه الله.

عرفته في الحضر والسفر، والسراء والضراء، في السجون والمعتقلات، في الأفراح والأقراح، في النضال الوطني السليم، وفي المجال الإسلامي الفسيح، عرفته ككاتب متمرن، وكصحافي مقتدر، وكمؤلف محلل، وأخيرا عرفته كصديق أدرك عمق الصداقة الحقة، وروح الأخوة في الله التي لا تنفصم عراها، مهما طال الزمان، وتوالت الأحداث والأعاصير.

قلب نقي، وفطرة سليمة، وتسامح دائم، وغيرة وطنية مثلى، وتشبث بالإسلام متين، عرفته أولا عن طريق أخيه لأمِّه،

الصديق المرحوم، محمد البقالي، وعرفته عندما التحق بالمدرسة التي كنت أديرها بالزاوية القادرية، ضمن تلامذة آخرين في سنه، كانوا يقصدون المدرسة المذكورة بمناسبة العطل الصيفية، ليتمموا ما ينقصهم في المدارس الرسمية، وكان من جملتهم المرحوم عبد الرحيم بوعبيد والمرحوم عبد الرحمان ابن عبد النبي، اللذين كان ارتباطي بهما يزيد قوة ومتانة مع تعاقب الأيام.

ولادتـــه :

ولد بسلا سنة 1920 ميلادية، وبها تابع دراسته الابتدائية، بمدرسة كانت تسمى إذ ذاك (مدرسة أبناء الأعيان) ثم تابع دراسته الثانوية بثانوية مولاي يوسف بالرباط، وبثانوية (كورو) الفرنسية، وبعد نيله شهادة الدبلوم الفرنسية العربية، وكانت تعادل شهادةالبكالوريا، حيث أن الإدارة الفرنسية، كانت تمانع في إعطاء شهادة البكالوريا للمتخرجين من ثانوية مولاي يوسف، حتى لا يمكنهم الالتحاق بالجامعات الفرنسية، وهكذا التحق بمعهد كان يسمى بمعهد الدروس العليا بالرباط، حيث تابع دراسته في الأدب والتاريخ، وخلال دراسته الثانوية، كان يتلحق بالمكتب الإسلامي بالزاوية القادرية، والذي سمي فيما بعد بثانوية النهضة بسلا، بمناسبة العطلة الصيفية، مع زمرة من زملائه كعبد الرحيم بوعبيد، وعبد الرحمان بن عبد النبي الصديقين الحميمين لقاسم الزهيري. ومن هذا التاريخ وهو سنة 1935 أو 1934 بدأ تعرفي على قاسم الزهيري، كتلميذ مجتهد. كان لقاسم الزهيري أخوان : أحدهما شقيق، وهو الطاهر الزهيري، وكان يشتغل في التعليم كمعلم ابتدائي، ثم كمفتش للتعليم، ثم في آخر

حياته، نائبا لوزير التعليم في بعض الجهات، أما أخوه الثاني، فكان أخا من أمه، وهو أخونا المرحوم الوطني الغيور السيد محمد البقالي، وكل من قاسم وأخويه، نشئوا في حضن خالهما المرحوم السيد بوبكر يعكَوب. الذي بقي يرعاهم ويحتضنهم، إلى أن بلغوا أشدهم، وكان منزله بباب احساين مفتوحا أمام الحزب الوطني، تعقد فيه الاجتماعات الوطنية السياسية في كل المناسبات، يضاف إلى منزل سيدي أحمد بن الحارثي حجي، الذي عقد فيه أول اجتماع موسع، بمناسبة الاحتفال بمرور سنة على صدور مجلة (مغرب) بباريس، والتي كانت اللسان المعبر من الفكر الوطني، والمطالب الوطنية، وذلك سنة 1933، وكذلك منزل السيد أحمد الأحرش الذي يعرف الآن بمنزل ابن القاضي، والذي انعقد فيه اجتماع وطني كبير بمناسبة تقديم المطالب المستعجلة، خطب فيه كثير من الخطباء، في طليعتهم الزعيم علال الفاسي والزعيم محمد بن الحسن الوزاني، والمرحوم الحاج أحمد معنينو، وعبد ربه أبو بكر القادري، وذلك سنة 1936. أما المنزل الرابع الذي كنا نعقد فيه بعض الاجتماعات الوطنية الثقافية الموسعة، فهو منزل الفقيه مسطس الذي كان من جملة الاجتماعات التي عقدت فيه، اجتماع ألقى فيه العلامة المرحوم الوطني السيد بوبكر زنيبر محاضرة في موضوع تاريخي.

أسـرتـــه :

ينحدر المرحوم قاسم الزهيري، من أسرة تنتمي إلى الأسرة النبوية الشريفة، ولعلها الأسرة الإدريسية، وجدوده أتوا من الشمال، واستقروا بسلا.

قاسم الزهيري ونشاطه الوطني والإسلامي :

بدأ قاسم نشاطه الوطني والإسلامي، في جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي أسسناها سنة 1933، وكان لها دور هام، في تكوين الشباب وتوعيته، ورغم أنه كان صغير السن، فلم تمض على التحاقه بصفوف أعضاء الجمعية، حتى انتخب في مجلسها الإداري، فكان عضوا عاملا نشيطا فيها، وكانت هذه الجمعية، زيادة على مهمتها القرآنية، تعقد اجتماعا أسبوعيا كل يوم جمعة، تلقى فيه أحاديث ثقافية، وتوجيهية، وسياسية، توجه الشباب المنخرط فيها، التوجيه الوطني السليم، ويربى ضمنها على أساس الوطنية الصادقة. واعتناق المبادئ الإسلامية الصحيحة، فكانت شبه المزرعة، تهيئ الشباب للمجال الوطني، وتنمي فيهم روح الغيرة، واعتناق الأفكار الوطنية، وتعدهم للمجالات الوطنية، والكفاح الوطني، وكان قاسم الزهيري، من هذه الزمرة الوطنية، التي أعدت الإعداد القوي السليم، لأداء واجبها الوطني.

قاسم الزهيري يدخل السجن وهو في سن 16 :

ابتدأ قاسم نشاطه الوطني، بتعرضه للسجن وهو لم يتجاوز السادسة من عمره، ففي سنة 1935 كنت قررت فتح فرع لمدرسة النهضة، وما أن وجهت الأخ المرحوم محمد البقالي، مع زمرة من صغار التلاميذ للدار التي كنت حزتها من صاحبها طبقا لرسم شرعي مسجل بالمحكمة الشرعية، ليشرعوا عمليا في القراءة فيها، حتى قامت قيامة المراقبة المدنية الفرنسية، فوجهت

لي إنذارا بواسطة باشا المدينة، الحاج محمد الصبيحي، بأن أتخلى عن المدرسة نهائيا، وأمكن الباشا من مفتاحها، وأرجع التلاميذ إلى المدرسة الأصلية، ولما رفضت الطلب الفرنسي، أمر الباشا بإلقاء القبض عليَّ، وإدخالي السجن، كما أمر بإلقاء القبض على الأخ البقالي الذي رفض بدوره الاستجابة لما طلبه منه الباشا من التخلي عن تعليم الصبيان في المدرسة، وهكذا أدخلت إلى السجن، أنا والأخ البقالي، رحمه الله حيث مكثنا معتقلين فيه بضعة أيام، ولما جاء يوم المحاكمة، صدر الحكم علينا بالمدة التي قضيناها بالسجن، وأطلق سراحنا، ولما خرجنا من المحكمة وجدنا إخوانا لنا متجمهرين أمام باب المحكمة، فما أن رأونا خارجين، حتى بدءوا بالتصفيق، كتعبير على الانتصار، وكان من جملة الحاضرين بباب المحكمة والمصفقين، المرحوم قاسم الزهيري والمرحومين : سعيد حجي، والحاج أحمد معنينو، وبوبكر السماحي، ومحمد اشماعو، فاغتاظ الباشا، والمراقب المدني الفرنسي، من تصفيقهم، وأمرا بإلقاء القبض عليهم، وإدخالهم السجن، وكان من جملة من دخل السجن، المرحوم قاسم الزهيري، رغم صغر سنه، فمكث في السجن نحوا من ثلاثة أيام أو أربعة أيام، وأُطلق سراحه فكان هذا السجن أول امتحان له، حيث برهن على ثبات منقطع النظير، وجعل مدينة سلا كلها، تذكر اسمه باعتزاز وتقدير.

أصبح قاسم الزهيري، يعد من جملة الوطنيين المشار إليهم بمدينة سلا، ولدى إجراء انتخاب مكتب فرع الحزب، انتخب عضوا في المكتب، ثم في بعض الفترات، انتخب كاتبا

لفرع الحزب الوطني، وكان من أعضاء مكتب الفرع، أي فرع الحزب الوطني، الإخوة المرحومون : عبد الرحيم بوعبيد، محمد البقالي، أبو بكر الصبيحي، أبو بكر السماحي، بالإضافة إلى أبي بكر القادري، والطاهر زنيبر.

وفي سنة 1943، عين هو والإخوة : عبد الرحيم بوعبيد ومحمد البقالي وأبو بكر الصبيحي والصديق بن العربي، والطاهر زنبير، أعضاء في (الطائفة) وهي الجناح السري للحزب الوطني، باقتراح من أبي بكر القادري، وفي هذه السنة كان التفكير في المطالبة بالاستقلال، وفي حادي عشر يناير 1944 كان تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، إلى جلالة محمد الخامس، وإلى سلطات الحماية، وإلى ممثلي كل من الولايات المتحدة، وإنكلترا، في المغرب، وكان قاسم الزهيري من الموقعين على الوثيقة، وكان هو وعبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة، أصغر الموقعين في الوثيقة، وكان إذ ذاك يرأس تحرير جريدة (المغرب) اليومية، التي كان يصدرها المرحوم سعيد حجي، ولقد كانت الجريدة الأولى، التي أصدرت الخبر ونشرت الوثيقة، وعنونتها بما يلي : (المغرب ملكا وشعبا يطالب بالاستقلال) مع تعاليق، وبيانات، تتعلق بموضوع المطالبة بالاستقلال.

ولقد منعت سلطات الحماية توزيع هذا العدد، وأخذته من المطبعة.

وفي 29 يناير 1944 بعد اعتقال الأمين العام للحزب، الحاج أحمد بلافريج، والأمين العام المساعد، الأستاذ محمد اليزيدي، وقعت مظاهرات في كل من الرباط وسلا، وكان من أبرز الذين

ترأسوا مظاهرة سلا، زيادة على عبد الرحيم بوعبيد، ومحمد البقالي، قاسم الزهيري، الذي اعتقل إثر ذلك وقضى فترة سنتين كاملتين في السجن : (سجن الرباط، والدارالبيضاء، والعاذر) وبالمناسبة، أسجل هنا، أننا لمَّا أخذونا من سجن الرباط، إلى سجن العاذر، مرورا بالدارالبيضاء، كنا في سيارة الأمن، نحن أربعة سجناء : (1) قاسم الزهيري، (2) عبد الرحيم بوعبيد، (3) أبوبكر القادري، (4) محمد البقالي. وكان قاسم الزهيري في جانبي الأيمن، إن لم تخني الذاكرة، ويده اليسرى، موثقة بيدي اليمنى بما كانوا يسمونه برقم 5، ويدي اليسرى موثقة بالحديد بيد عبد الرحيم بوعبيد اليمنى، وفي تلك الأثناء تذكرت نشيدا كنا ننشده، لزعيم وطني سوري، فافتتحته قائلا وهما يرددان معي :

(يا رنين القَيْد زِدْني نغمةً تشجي فؤادي)
(إن في صوتك معنًى للأسَى والاضطهاد)
(فاشهَدنْ يا نجمُ أني ذو وفَاء وودادِ)
(لست واللَّهِ بناس ما تقاسيه بلادي)

وبعد قضائه فترة السجن، وسراحه، غير اتجاهه الصحفي، ولبى دعوة من فرع الحزب بمدينة الجديدة، لتأسيس مدرسة التهذيب، التي تولى إدارتها، وتسييرها، بحزم واقتدار. ثم تولى كتابة فرع الحزب هناك، ثم دعته اللجنة التنفيذية للحزب، إثر صدور جريدة (العلم)، ليشارك في تحريرها، ثم ليتولى رئاسة تحريرها في سنة 1950 والتي بقي رئيس التحرير إلى دجنبر، 1952 إثر حوادث فرحت حشاد، التي وقع اعتقاله بعدها مع أعضاء اللجنة التنفيذية، حيث قضى نحو الأسبوعين بكوميسارية

الدار البيضاء في التحقيق، قبل أن يحال على المحكمة العسكرية، بتهمة التآمر ضد الأمن الداخلي والخارجي للدولة، هو وأعضاء اللجنة التنفيذية للحزب، ولقد قضى مدة سجنه بالدار البيضاء أولا، ثم نقل إلى سجن القنيطرة، ثم بعد قضاء فترة عامين، أطلق سراحه، حيث تولى رئاسة تحرير جريدة العلم من جديد.

وبعد رجوع محمد الخامس من المنفى، وحصول المغرب على استقلاله، وكان رئيسا لتحرير (العلم)، تلقيت منه برقية من باريس جاء فيها ما يلي بالحرف :

الحمد لله، أخي أبو بكر تحيات وأشواقا.

لا أريد أن أضيع هذه الفرصة التاريخية، دون أن أكتب إليك.

الساعة الآن الثانية عشرة إلا الربع ليلا، وأنا في نزل كريُّون، حيث يجتمع الوفدان المتفاوضان، بقصد تحرير التصريح المشترك، الذي ينتظره الشعب المغربي : تصريح الاعتراف باستقلال المغرب، وإلغاء عقد الحماية، ويظهر أن هذا التصريح سيعلن بعد ساعات محدودة، فلا يصلك كتابي، إلا وقد برز إلى الوجود.

فيمكنك أن تتصور مدى إحساس أخيك في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخنا القومي، أرجو الله أن يتم نعمته على المغرب، سلامي لعقيلتك وكافة أبنائك والأصدقاء.

27 فبراير 1956 **أخوك : قاسم الزهيري**

وبعد رجوعه، وتعيين أول حكومة مغربية، عين مديرا عاما للإذاعة الوطنية، وكان أول مدير مغربي للإذاعة في عهد الاستقلال، وبقي مديرا للإذاعة نحوا من عامين، عمل فيهما على مغربتها، وتنظيمها تنظيما جديدا، وبعد استقالته أو إقالته منها، عين مديرا لجريدة (العلم) وذلك سنة 1959.

وظـائـفـه :

في سنة 1961 عينه جلالة الملك محمد الخامس، سفيرا بالسنغال، ثم عينه جلالة الحسن الثاني، مندوبا لدى الأمم المتحدة بيوغوسلافيا، ثم سفيرا بالجزائر، ثم مندوبا دائما بالجامعة العربية، ومديرا بجنيف، وبعد ذلك مكلفا بمهمة بالديوان الملكي، فوزيرا للتعليم الثانوي والتقني، ثم سفيرا بموريتانيا وسفيرا بالصين الشعبية، ثم أمينا عاما مساعدا، لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة على مرحلتين.

وخلال هذه الفترات، كان عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب، ثم أقيل منها في يوليوز 1968.

فما هي دواعي خروجه من اللجنة التنفيذية إذ ذاك :

كان الحزب مشاركا في الحكومة، ونظرا لظروف سياسية طارئة، قررت اللجنة التنفيذية للحزب استعفاءها من المشاركة في الحكومة، وأصدرت بلاغا في موضوع تعيين كل من قاسم الزهيري ومحمد الفاسي عضوين في الحكومة الجديدة، معتبرة قبولهما الاشتراك في الحكومة الجديدة، يتنافى مع القرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية في الموضوع، لأنه ليس من المعقول أن

يكون الحزب في المعارضة، وفي الوقت نفسه يوجد عضوان في اللجنة التنفيذية مشاركين فيها، وهكذا كان قرار إعفاء الفاسي والزهيري من اللجنة التنفيذية.

ولكن المرحوم قاسم الزهيري، اعتبر هذا القرار غير شرعي، وغير قانوني، وأنه قرار جائر، فكتب رسالة إلى رئيس الحزب الأستاذ علال الفاسي، هذا نصها الكامل :

الحمد لله. حضرة الزعيم المفضل الأستاذ سيدي علال الفاسي، رئيس حزب الاستقلال.

الرباط في 17 يوليو 1968.

تحية مودة وتقدير.

اطلعت في جريدة «العلم» و«الرأي»، يوم 12 يوليو على خبر، مفاده، أن اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، قررت إعفائي مؤقتا من المجلس الوطني، بسبب دخولي للحكومة.

وقد استغربت لهذا الإجراء المنفرد، الذي اتخذته اللجنة الموقرة، خصوصا أن المذاكرة كانت جارية بيني وبين بعض الإخوان الذين عينتهم، لإيجاد تسوية ـ باتفاق معي ـ لهذه القضية، وقد سبق أن طلبت أن أمثل أمام اللجنة التنفيذية، أو أي هيأة عليا للحزب، لأشرح وجهة نظري، قبل اتخاذ أي قرار.

ودون أن أتعرض إلى جوهر الموضوع، أو أن ألفت نظركم، إلى أن القرار الذي اتخذ في شأني، يتنافى مع القانون الداخلي للحزب، ومن ثم يصطبغ بصبغة جائرة.

وحيث أنني من المؤسسين لحزب الاستقلال، وممن ساهموا ببعض النشاط في صفوفه، وممن تقلبوا في هيآته العليا، وحيث أن المؤتمر العام للحزب، جدد انتخابي، كعضو في المجلس الوطني، ولما يصطبغ به قرار اللجنة التنفيذية من صيغة جائرة، فلا يمكنني أن أقبله، وأحتج عليه، كما أود أن ألفت نظركم، إلى أنني أحتفظ بحقي الكامل في إثارة هذه القضية، أمام الهيآت العليا للحزب، لإعادة الحق إلى نصابه، وإنصافي، وتقبلوا سيادة الرئيس عبارة تقديري ومشاعري الأخوية.

(قاسم الزهيري).

ولقد أجابه الرئيس علال بالرسالة الآتية :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

الرباط في 20 يوليو 1968م.

أخي العزيز، وصديقي الحميم، الأستاذ قاسم الزهيري. لا عدمته، وتحية وسلاما دائمين.

وبعد، فقد سلم لنا الأخ أحمد بن اليمني، رسالتكم المتعلقة بالبلاغ الذي أصدره الحزب، بمناسبة تعيينك وتعيين الأخ محمد الفاسي، عضوين في الحكومة المغربية.

وإني أعبر لك عن أسمى عواطف تقديري، لما عبرت عنه من تعلق وتفان، في خدمة الحزب ومبادئه، ورغبة في مواصلة نشاطك داخل هيآته، وذلك هو المظنون والمعتقد فيك، وقد عرضت رسالتك في الحين، على إخوانك أعضاء اللجنة

التنفيذية المتعلقين بك، والمسألة في نظرنا جميعا، ليست مسألة قانونية، وإنما هي سياسية، وتنحصر في منطق بسيط، وهو عدم إمكان الجمع بين المسؤولية في المعارضة، والمسؤولية في الحكومة، وذلك هو جواب اللجنة في الموضوع.

وثق أيها الأخ، أن المصلحة العامة، هي التي فرضت علينا، إيثار الحل السياسي، على الحل القانوني الذي أشرت إليه.

هذا ولست بحاجة إلى أن أؤكد لك باسمي، واسم إخوانك، تعلقنا بك، وحرصنا على أن تنجح في مهمتك، وأن نتعاون دائما على ما فيه خير الوطن، والعروبة، والإسلام.

وتقبل أخي، أصدق عواطفي الأخوية.

علال الفاسي رئيس الحزب.

لقد أتيت بهذين الرسالتين الهامتين، لأوضح الجو الذي كان سائدا داخل اللجنة التنفيذية، وهو جو، أقل ما يقال فيه، أنه جو أخوي ممتاز، ورغم العوارض التي تعرض، ورغم الظروف السياسية التي تتحكم، وهي ظروف ربما كانت تفرض تلك القرارات التي اتخذتها اللجنة التنفيذية، لأنها كانت أعمق وأوسع ممَّا لم يشر إليه الرئيس علال في رسالته، والتي كانت محل نقاشات، وحوارات، أخذت منا الوقت الكثير، وأما القرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية فيما يتعلق بالشخصين اللذين اشتركا في الحكومة، فإنه كان في الواقع متجها إلى السياسة العامة، التي صارت تتبدل، والتي كانت ترمي إلى نوع من السيطرة الاقتصادية، والمالية، من المخزن،

وإغفال الحكومة التي كانت تسير الأمور، والتي استقال الحزب منها ليدخل صف المعارضة.

لقد استجاب الأستاذ محمد الفاسي، للقرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية، و لم يبد أي اعتراض، ولكن الأستاذ قاسم الزهيري، كان له رأي آخر، عبر عنه في رسالته إلى الرئيس علال. والشيء الذي يدعو إلى الأسف، هو أن الأستاذ قاسم انفعل كثيرا من قرار إعفائه من اللجنة التنفيذية، رغم الرسالة المهدئة التي كتبها له الرئيس علال، وهذا الانفعال جعله يبتعد عن إخوانه في الحزب، رغم أنه لم يقدم استقالته من الحزب، وهكذا صار بعيدا عن جو الحزب، وعن قراراته، وكأنه لم يبق عضوا فيه بالمرة.

وأذكر أننا في اللجنة التنفيذية، تناقشنا كثيرا في موضوع البلاغ الذي صدر، وكان البعض منا واقفا موقف التحفظ، أو الاعتراض الكلي عن صدور البلاغ، ولكن الأغلبية كانت مع البلاغ، ومع الموقف السياسي الجديد للحزب.

وابتعاد قاسم عن الحزب، لم يفقده إخوانا له، بقوا على العلاقة الأخوية المتينة معه إلى آخر حياته، و لم يبعده عن المبادئ التي تربى ونشأ عليها، والتوجهات التي صار عليها طوال حياته إلى أن لقي ربه، فأثناء توليه وزارة التعليم الثانوي والتقني، أطلعني على التقرير الذي قدمه للحكومة، في شأن إصلاح التعليم وتوجيهه، فرأيته سائرا في الخط الوطني السليم، الذي كنا نطالب به، ولكن هذا التوجه لم يرض إذ ذاك السياسة

الجديدة التي كانت تخطط لها الحكومة الجديدة، ولذلك لم يطبق، ولربما كان السبب في إعفائه من الحكومة بعد ذلك.

أتيت بهذه التفاصيل عن ابتعاد الأخ قاسم الزهيري، عن الحزب، لأني في الواقع كنت متألما مما وقع، ولأني أعتبر أن ابتعاده عن الحزب، غير طبيعي، ولا ينسجم مع حقيقته الوطنية التي عاش عليها طوال حياته، فرغم الظروف التي طرأت، ورغم اختلاف وجهة النظر فيما وقع، فإن أملي كان كبيرا في أن يبقى قاسم في مكانه في الحزب، يؤدي رسالته ضمن إخوانه الذين كانوا يعزونه كل الإعزاز، وفي طليعتهم الرئيس علال الذي عبر له عن ذلك في رسالته التي وجهها له، ولكن الله غالب على أمره.

قاسم الزهيري ككاتب وصحفي :

يعتبر قاسم الزهيري، من ألمع الكتاب الصحفيين، فلقد تعاطى للكتابة وهو لازال في ميعة الشباب، وكان أسلوبه في كتابته أسلوبا سلسا، ليس فيه تعقيد، ولا غموض، أول ما قرأت له وهو صغير، مقال في جريدة، أو مجلة، بتوقيع «تلميذ» فأعجبت بأسلوبه إذ ذاك، رغم صغر سنه، ثم توالت كتابته بعد ذلك في جريدة المغرب، التي كان يصدرها المرحوم سعيد حجي في الثلاثينيات، والذي يعتبر في الواقع مشجعه الأول، في مجال الصحافة، لقد تأثر في مراحله الأولى للكتابة، بكتابة فطاحل الكتاب، في طليعتهم طه حسين، حيث رأيناه في بعض ما كتب يتشبَّه بطه حسين في كلمة ألقاها في تأبين أحد أصدقائه حيث قال :

(كان يجيء ويجيء، ويعاتب من لا يجيء) وهكذا صار يتطور، لا في أسلوب كتابته فحسب، ولكن حتى في محتوى ما يكتب، إلى أن صار من الكتاب اللامعين المكثرين، الأمر الذي أهله باستحقاق لرئاسة تحرير جريدة (المغرب) وجريدة (العلم) فترات متعددة، سواء قبل الاستقلال، أو بعد الاستقلال. لقد أعطاه الله موهبة خضع له القلم فيها، فكان يذبج المقالات في مختلف الجرائد والمجلات، ومنها مجلة (دعوة الحق) ومجلة (الإيمان) وغيرهما، وكانت افتتاحياته في جريدة «العلم»، مثار الاهتمام، خصوصا أيام الحماية، حيث كانت تتابع السياسة الاستعمارية التي تطبقها الإدارة الفرنسية بالنقد، الذي كان يثير الإدارة الاستعمارية، وكانت انطلاقاته في الكتابة، انطلاقات وطنية قوية ومعبرة، كما كانت تعبر عن أفكار ومبادئ حزبه الوطني، كان يلاحق الأحداث في تعاليقه، وافتتاحياته، كمواطن ملتزم، لا كمطلق صحفي، وكثيرا ما كنت ألاحظ وأنا قريب منه في مكتبه بجريدة «العلم»، زيارة الأمين العام للحزب المرحوم بلافريج، ومعه الأمين العام المساعد، المرحوم محمد اليزيدي، ليتذاكرا معه في موضوع سياسي، من المواضيع التي تتطلب التعليق، أو النقد، أو التوضيح والتبيين، وهكذا تكون افتتاحياته، لا معبرة عن رأيه فحسب، ولكنها تعبير عن رأي الحزب الذي ينتمي إليه، وتوجيه وطني سليم، للطبقات الشعبية التي كانت تتطلب توضيح المواقف لتسير في النهج المستقيم، وهنا أشير إلى أن الإدارة الاستعمارية، كانت تنتظر بدورها ما سيصدر من تعاليق في «العلم» حول مخططاتها السياسية،

وتتذمر من المواقف التي تقف ضدها، وإذا ما أتيح للباحثين أن يرجعوا لما كانت تثيره المقالات الافتتاحية في «العلم»، سواء في عهد توليه رئاسة التحرير، أو في عهد الأخ عبد الكريم غلاب، لاطلعوا على مواقف الحزب في القضايا العامة، يوما بيوم، وساعة بساعة، ولتبين لهم أن الحزب في نضاله الوطني، لم يكن بعيدا عن أي معركة من المعارك ضد الاستعمار، خلال فترات الاستعمار.

لم تكن كتابات قاسم الزهيري رحمه الله، كتابات سياسية فحسب، ولكنه في بعض ظروف حياته عالج مواضيع أخرى أدبية، وتاريخية، ونقدية، وأصدر مؤلفات متعددة في مواضيع مختلفة، كانت مثار الاهتمام، والدراسة، من الباحثين المطلعين، كان من أولها، ترجمته للقصة التي كتبها (رولان لوبيل) وجعل عنوانها (ذهب سوس) وهي قصة قال عنها : (تتحدث عن فترة كانت خلالها بلادنا في أوج العظمة والمجد، وقد توفق الكاتب م. رولان لوبيل، في إبراز معالم هذه الفترة، وتوضيح العلاقات التي كانت تربط بلادنا إذ ذاك بإنجلترا) وتوالت كتاباته التأليفية، فصدر له كتابان عن محمد الخامس، (مفخرة الدولة العلوية) ومحمد الخامس، (الملك البطل)، وعندما كان سفيرا بموريتانيا، صدر له كتاب تحت عنوان : (مذكرات ديبلوماسي عن موريتانيا) ويتحدث في هذا الكتاب عن العلاقات المغربية الموريتانية وعن تجربته الديبلوماسية في السنغال، وعن الأحداث التي عاشها إذ ذاك، وعن اهتماماته بالقضايا الوطنية الجوهرية، ومنها قضية الوحدة الترابية، وصدر له كتاب آخر عن (جنيف والعالم العربي).

ومن آخر ما صدر عنه من مؤلفات، كتابه الأخير الذي جعل عنوانه : (أزمة بعد أخرى) وفي الإهداء الذي قدم لأخيه في هذا الكتاب قال : (هذا الكتيب الذي يكشف الحقائق عن حدث كنا شهداء عليه، وقد حاولت أن ألتزم الموضوعية في رواية هذا الحدث، كما عشناه جميعا، فعسى أن أكون وفقت، مع أصدق مشاعر الأخوة والمودة والوفاء 2000/12/7.

ومن الكتابات التي التزم بها، ما كتبه في (معلمة المغرب) خلال ثلاثة عشر عددا، حيث كان رحمه الله خصها بكتابات في مواضيع مختلفة، أشار إليها الأستاذ إبراهيم بوطالب في الكلمة التي أبنه بها بعد وفاته، حيث قال : (وكنا نعتمد عليه رحمه الله، وعلى ما وهب من ملكة القلم، التي هي كناية عن الملكة الفكرية، في تحرير بعض المواد التي كنا لا نقترحها على أحد قبل أن نقترحها عليه، فإن التزم بها، كنا على يقين من أن تلك المواد ستأتي على ما ينبغي للأسلوب المعلمي من قوة التركيز، واستيفاء المعنى، مع منتهى الاقتضاب، والوقوف عند ما قل ودل.

ولقد حرر الفقيد ثلاث عشر مادة، منها تراجم بعض رجالات المغرب المعاصر، ممن كان له بهم صلة الصداقة والنضال، فتعرف عليهم عن كثب، وسبقوه إلى دار البقاء، فلا أحد يمكن أن يتقدم عليه في إثبات سيرهم في المعلمة، رحمهم الله جميعا، كما كتب في قضايا عامة، تتصل بعمله كأول مدير لدار الإذاعة المغربية، أو بعمله في الميدان الديبلوماسي، أو بالأحرى بنضاله الذي لم ينقطع أبدا في صفوف الحركة الوطنية، وفي الحزب الذي أخلص للعمل في صفوفه مدى

حياته، وهو حزب الاستقلال، وهذه المواد، هي كما يلي بحسب الترتيب الأبجدي، وبحسب ما وردت عليه في مجلدات المعلمة الثمانية عشر المنشورة إلى حد الآن، فعشرة من مقالات الفقيد، منشورة، يمكن لقراء المعلمة الرجوع إليها، أما المواد الثلاثة الأخيرة فهي في طريق النشر، ضمن المجلد التاسع عشر الذي ننوي إصداره، والمجلد العشرين في مطلع السنة القادمة بعون الله [1] وهذه المواد هي : (1) الإذاعة بالمغرب (2) انتسيرابي (3) حزب الاستقلال (4) ثورة الملك والشعب (5) الديبلوماسية (6) امحمد (فتحا) الزغاري (7) الصين والمغرب (8) المهدي ابن اعبود (9) عيد العرش (10) محمد غازي (11) عبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي (12) عبد الكبير بن المهدي الفاسي (13) محمد بن عبد الواحد الفاسي (انتهى ما كتبه بوطالب).

مراسلاته :

كانت لي مع صديق العمر، عدة مراسلات، ابتدأت حسبما بقي في ذاكرتي سنة 1938، حيث كتبت له عدة رسائل من السجن، أصف فيها حالة السجناء وضوابط السجن، وتعامل الحراس مع المسجونين، والفوارق بين المسجونين المغاربة، والمسجونين الأروبيين، إلى غير ذلك من الصفات والملاحظات.

ولقد كنت سألته رحمه الله، هل لازال يحتفظ بتلك الرسائل، فأجاب بالنفي.

(1) صدر العددان التاسع عشر والعشرون وفيهما المقالات المشار إليها.

ثم جاءت سنة 1940 حيث وجدت ضمن الأوراق التي أمكنني الاحتفاظ بها، رسالة كتبها لي، تعبر عن العلاقة الوطيدة التي كانت بيني وبينه، والأخوة الصادقة التي جمعتنا، والتي كانت عبارة عن امتزاج روحي صادق، وصل إلى حد من الطهر والنصح والوفاء، ما جعله يقبل وبارتياح، ما كنت أصارحه به من نصائح، وتوجيهات، وملاحظات.

تقول الرسالة المؤرخة بـــ 1940/11/28م الحمد لله ـ أخي العزيز أبو بكر ـ لم أشك لحظة واحدة، أني حطمت قصر آمالك، فحملتك على اليأس، وقضيت على إحدى الصداقتين اللتين كنت فخورا بهما، ولم يخالجني ريب في كوني الوحيد الذي خيبت آمالك، وجعلتك تفكر في الانعزال، وما عداي فهو ظل زائل. أرهفت سمعي ليلة الأمس، للإنصات إلى تحليلك لنفسي، واستعراضك لزلاتي، ولم أستطع أن أقول كلمة واحدة، ولعل نظراتي كانت تنبئك بدخيلتي، ثق أخي أني موافقك على كل ما قلت، فإنك لم تقل إلا كلمة حق، حملك على مصارحتي بها، إخلاصك لأخوتنا، ذلك الإخلاص الذي لم أستطع تقديره فيما مضى. والآن فهذه فترة من حياتي تحمل الخزي والخيبة، سأعمل فوق المستطاع على مواراتها، وسأجتهد في توطيد المستقبل على دعائم جديدة متينة ثابتة، فهل من أمل في استرداد قلب عزيز هشمته ثم ضيعته ؟

أخوك الأبر : قاسم الزهيري.

كانت هذه الرسالة سنة 1940 أي منذ أزيد من ستين سنة، وهي تعبر عن عمق الصداقة والأخوة التي كانت بيننا، والتي بقيت مستمرة إلى وفاته ولقاء ربه.

وفي سنة 1946 بعد سراحنا من السجن ببضعة شهور، قرر الذهاب إلى الجديدة للاشتغال بالتعليم، و لم أكن موافقا شخصيا على تغيير اتجاهه الصحفي والسياسي، ولكنه كان مصرا على قراره لأسباب شرح بعضها في الرسالة الآتية :

الحمد لله وحده الجديدة في 10 أكتوبر 1946

أخي الأعز أبو بكر، تحية وأشواقا حارة، كثيرا ما يتعلل الصديق لصديقه بكثرة الأشغال، محاولا إقناعه بأنه يفكر فيه دائما، ويحرص كل الحرص على الاتصال به، ولكن الأشغال وما أكثرها في لغة التراسل ـ تحول دون ذلك، وكثيرا ما تكون الأشغال ستارا للمتهاونين في حق أصدقائهم، وما أكثر من يتوارى وراءه لتبرير تكاسله، أبعد هذا يحق لي أن أعتذر عن عدم مكاتبتك بكثرة الأشغال.

إني أخشى ألا تحمل كلامي في محمل الصدق، فلم يتفق لي منذ استوطنت الجديدة، أن أضربت نهائيا عن المكاتبة، مثل هذه المرة. فقد كتب لي أخي الطاهر أخيرا، مستغربا ذلك مني، و لم أكتب لأهلي بسلا لحد الآن، رغم كثرة شوقي إليهم، والسبب الوحيد، هو أن لي مدرستين، ألزمت نفسي بتسييرهما، وفتحت قسما للشهادة الابتدائية، أعمل ما في وسعي لتهيئه لدورة جوان المقبلة، زيادة على العمل الوطني المحض، الذي يأكل كل أوقات الفراغ، فحتى زوجتي، أخذت تشتكي من قلة جلوسي إليها، فلا تستغرب إذاً، إن لم أكن البادئ في الكتابة هذه المرة. أخي لقد حملت رسالتك

عبارة الأخوة الصادقة والإخلاص المكين، والوفاء الدائم، فثق أني أكن لك في أعماقي نفس ما عبرت عنه أحسن تعبير في كتابك، فليس في الوجود ما يمكن أن يفصم عرى الروابط الروحية التي تربطنا، فاغترابي هنا، لا ينسيني ذكريات محببة إلى نفسي، اشتركنا فيها وامتزجنا ببعضنا، حتى أصبح الواحد منا نسخة طبق الأصل للآخر، يسعد بسعادته، ويشقى بشقائه، فحنيني إلى تلك الأيام الحلوة، يتجدد يوما عن يوم.

لقد هيجت دفين أسراري، بما سطرته من ملاحظة علي، حيث اعتبرتني جانيا على نفسي، بالخطة التي أتبعها الآن، فإني لم أتعاطها ـ رغم ما كنت أبدي إلاَّ لأن الظروف القاسية التي مرت بنا، ألزمتني بالبحث عن شغل موقت فحسب، بل كنت جادا في إيجاد عمل، أشعر فيه ببعض الحرية، وبأداء قسطي في العمل للبلاد، ويضمن لي في آن واحد حياة عائلية هنيئة، فقد فكرت طويلا أثناء المحنة التي مرت بنا في مصيري، وبحثت بدقة استعداداتي وميولي، فانتهى بي الأمر إلى عدم الاستمرار على الطريقة التي كنت عليها قبل السجن، فقد وجدت ـ رغم دفاعك عنه ـ تحت رحمة رجل لا يعرف معنى للكرامة الإنسانية، ولا حدا لاستغلال البشر، ولا مدلولا للواجب، بل كثيرا ما يسخر الواجب، والتضحية، والوطنية، لأغراضه، فكرهني في الحياة تحت رحمة الغير، ولولا وجودك، ولولا وجود طائفة من الإخوان، ولولا شعوري بأني أقوم ببعض الواجب المتطلب مني، لوقعت القطيعة قبل المحنة بأمد طويل. والأدهى من ذلك أن الحالة التي تحملتها ما يقرب من سنتين،

كان فقيدنا (سعيد) هو المتسبب فيها بتهاونه وإهماله، فقد كنت أعتقد خلاف ذلك إلى ما قبل السجن، وذلك ما جعلني أتيقن أن الحياة تنبني على شيء آخر، زيادة على الصداقة المتبادلة.

قلت، كرهت الحياة تحت رحمة الغير، ولكن لم أجد لي مناصا منها. فمثلنا في الفقر، وعدم الادعاء، والتلاعب بالمبادئ والتختل، من الصعب عليه أن تناط به مهمة يشعر فيها بحرية، ويفرغ فيها ما وهبه الله من استعداد، فما فتئت أبحث جادا عن عمل، حتى اختارت لي العناية الإلهية ما أنا فيه الآن، والحق أني وجدت في عملي هذا، كثيرا مما أروم، نعم، إني ما خلقت لأكون معلما كما قلت، ولكني أتسلى عن ذلك بما أشعر به من حرية، ونشاط في العمل، ورفاق موافقين مساعدين، ألفتهم وألفوني، وإقبال العناصر الطيبة علي، وإلى جانب ذلك، أساهم بقسطي في الحقل الوطني، مدفوعا بضميري وغيرتي، لا أبغي من وراء ذلك، إلا مصلحة بلادي، ولا علي في نفسي، ولأن أبقى خامل الذكر، وينال وطني كل ما يصبو إليه أو بعضه، خير لي ألف مرة، من أن يعلو نجمي بدون فائدة.

إنك يا أخي، تحسن الظن كثيرا باستعداداتي، ولا أظن لي استعدادات خارقة للعادة، ولا ينبغي أن تعتبر هذا مني تواضعا، بل هو عين الحقيقة، لذلك تراني لا أتطلع لما هو فوق مرتبتي، بل كل ما أتمتع به، وأحمد الله عليه، هو طوية نقية، وحب خالص للصالح العام، وزهد تام في حب الظهور، وقلما ينجح صاحب هذه الخلال، في الحياة، لذلك لا أرى لنفسي مقاما في المعترك الذي تندبني إليه، حيث تكثر الشحناء، والتنافس على شيء

زائل لا قيمة له، فلكل ميدان أربابه، أمعنى هذا أني سأظل حيث ما أنا مدى العمر ؟ لا، إن العمل الذي أتعاطاه الآن، لم أهيأ له، وإن كنت أنفق فيه جل نشاطي، ولكني بعد تفكير طويل، رجحت أن أستمر فيه، إلى أن تتهيأ لي أسباب عمل أنفع للبلاد، وأضمن لحريتي، ولحياة أسرتي، ولا أكاد أجد اليوم بين ما أرى، عملاً كالذي أطمع فيه، فهل ماتزال تعتبرني بعد هذا جانيا على نفسي؟ فإذا كنت تعني بها النفس الأمارة بالسوء، فنحن متفقان.

وإني لفي انتظار كتابك الموعود به قريبا، وقبل مني خالدا وكريمة، وفريدا، وبلغ سلامي لعقيلتك المحترمة، ووالدتك وأخويك العزيزين، وتسلم عليك زوجي، والسلام معاد لجميع الأصدقاء والإخوان، ودمت لأخيك.

قاسم الزهيري.

* * * * *

قصدت بإدخال هذه الرسالة ضمن هذا التعريف بقاسم، لأعطي للقراء والباحثين، الروح التي كنا نشتغل تحت ظلالها في بداية الحركة الوطنية، والتي كنا نعمل على تكوين الأجيال ضمن توجهاتها، تلك الروح التي جعلتني أخاطب صديقا حميما من أصدقائي، بأنه غالط في تغيير اتجاهه الذي كان عليه. وأعني به التوجه السياسي، والصحفي، فلقد كنت حريصا كل الحرص على أن يعد نفسه الإعداد الصحيح لأداء رسالته الوطنية كاملة في مستقبل حياته، وكنا قد خرجنا من السجن في تلك الفترة، ونحن نعد أنفسنا للقيام بواجبنا كاملا في معركة الاستقلال، بعد أن قطعنا المرحلة الأولى بمطالبتنا بالاستقلال،

ووضع قضية المغرب، ضمن قضايا حرية الشعوب، في تلك المرحلة التي بعد الحرب، والتصريحات التي كانت تقع بعد الميثاق الأطلسي، الذي طالب بضرورة إعطاء الشعوب حقوقها، وتمتيعها باستقلالها، فكنا إذ ذاك متحمسين كل الحماس لفكرة الاستقلال، وصرنا نعد العدة اللازمة لهذا الاستقلال، ومنها تهيئ الأطر اللازمة، لتسيير مرحلة الاستقلال، وإعداد الرجال المومنين الصادقين، ليحرصوا ويصونوا المبادئ، حتى لا يزاغ بها عن الطريق السليم، وهكذا كنت من جهتي أعطي كثيرا من الاهتمام، لبعض الشباب الذين كنت أتوسم فيهم الاستعداد للقيام بهذا الواجب، ومن جملتهم قاسم الزهيري، وعبد الرحيم بوعبيد، وعبد الرحمان بن عبد النبي، وإن كان هذا الأخير رحمه الله، لم يجد في نفسه الاستعداد للقيام بهذا الواجب، فاتجه الاتجاه الذي رآه صالحا له، وسلك مسلك الإعداد للأستاذية في كلية الحقوق، حيث نجح فيها، وصار إثر ذلك مديرا للمدرسة الإدارية، لدى تكوينها، ثم دخل بعد ذلك في السلك الدبلوماسي حيث صار سفيرا في بعض الأقطار العربية.

أتيت بهذه التفاصيل لأوضح الجو الذي كنت أشتغل فيه مع إخوتي، الذين كانوا يلازمونني ملازمة الظل لظله، ومنهم قاسم الزهيري.

والمثير في رسالة قاسم، أن صدقه الوطني، وروحه العالية، جعلاه يستفتي نفسه، ويعترف بأنه رغم مؤهلاته التي كنت أتوسمها فيه، فإنه لا يرى نفسه مؤهلا، ولا مستوفيا للشروط اللازمة لذلك، وإن دل هذا على شيء، فهو يدل على تواضعه وعلى الروح التي تربى عليها، ومن جهة أخرى فإن العوارض

الدنيوية الحياتية التي طرأت عليه، والتي شرحها في رسالته، جعلته يتجه لما اتجه إليه، رغم أنه لم يستمر إلا قليلا من السنوات، ثم عاد للميدان، ليؤدي رسالته الوطنية، عن طريق الصحافة وغيرها، كما عرضت لجانب منه فيما كتبته عنه.

لقد رجع إلى الصحافة كرئيس تحرير، وكمدير في جريدة الحزب : (العلم) ورجع إلى الميدان السياسي، كأحد المسؤولين في الحزب، بل كعضو في اللجنة التنفيذية للحزب، كما شرحت ذلك في مسيرته السياسية، ورغما من أنه تولى كثيرا من السفارات، وتولى وزارة التعليم في بعض مسؤولياته، فإنه بقي يتابع القضايا الوطنية لبلاده، ولو من بعيد، لقد تولى بعض السفارات التي عهد إليه بتسييرها، ابتداء من سنة 1961 إلى ما بعد سنة 1974، فتولى أولا كسفير في (دكار) ثم في (بكين) ثم في (نواكشوط) زيادة على مسؤوليته (كأمين عام مساعد) في منظمة المؤتمر الإسلامي (بجدة) إلى غير ذلك من المسؤوليات التي عهد إليه بتسييرها، وهو في كل هذه المسؤوليات، كان يتابع وباهتمام بالغ، قضايا بلاده سواء كان الحزب مشاركا في الحكومة أو بعيدا عنها، ونظرة إلى الرسائل الكثيرة التي كانت بيني وبينه، تعطي الدليل على أنه لم يتخل عن مسؤولياته، وقضايا بلاده، سواء أثناء وجوده بالمغرب، أو أثناء مسؤولياته خارج المغرب.

إن الرسائل المتبادلة فيما بيني وبينه، والتي أنشرها كملحمات في هذا الكتاب، وإن التقرير الصحافي الذي حرره بقرار من اللجنة التنفيذية، أثناء الصراع الذي كان بين الحزب

وبين الجنرال جوان، والذي وجهه إلى الرئيس علال الفاسي عندما كان مقيما بطنجة سنة 1951، يؤكد أن الرجل كان مهووسا بقضية بلاده لدرجة كبرى.

لقد ابتعد عن الحزب في ظروف سياسية خاصة، أشرت إليها فيما سبق، وذلك عندما تولي وزارة التعليم الثانوي والتقني، دون قرار من اللجنة التنفيذية، كما أشرت لذلك من قبل، ولكن الاتصال فيما بيني وبينه، بقي موجودا، وكذلك مع إخوان آخرين، فلم تكن هناك قطيعة، رغم أنه لم يبق بيننا عمل مشترك، بل أخذ كل طريقه ضمن الوفاء للالتزام الوطني، كما تعاهدنا عليه أول يوم من لقائنا الوطني، وبقيت الأخوة الصادقة قائمة، والثقة متبادلة والحمد لله، وأنا أحرر هذا أؤكد أن الصداقة بيننا، كانت مثالية، وكنا نتلاقى لا كأصدقاء فحسب، ولكن كإخوة أشقاء.

وأؤكد أنني عندما يزورني في بيتي، أو أزوره في بيته، كنا نعتبر أنفسنا أسرة واحدة، وكانت زوجته حفظها الله وجازاها خيرا تعتبرني أخا شقيقا لزوجها، ألقى منها كل الترحيب، وكل الاعتناء، سواء عندما تكون وزوجها في المغرب، أو عندما يكونان خارج المغرب، فبيتهما بيتي، وبيتي بيتهما، وللتأكيد على هذا أسجل أن قاسما ضمن أصدقائي، والمرحوم محمد اليزيدي، هما الاثنان اللذان يدعوهما أبنائي بعمي.

وتأكيدا لذلك أسجل هنا خبرا لا ينتظره القارئ بهذه المناسبة، لأنه يتعلق بي شخصيا، ذلك أني لما بلغت سن التسعين

من عمري، في السنة الفارطة، وكان أولادي وبناتي متتبعون لسني، قرروا مع بعضهم بعضا، إقامة حفل تكريمي لوالدهم بهذه المناسبة، و لم يشعروني بذلك، ويأخذوا رأيي في الموضوع، قرروا أن يقيموا هذا الحفل يوم فاتح أبريل 2004، واستدعوا أقاربنا الأقربين، لحضور هذا التكريم الخاص، و لم يستدعوا أي فرد خارج عن الأسرة، إلا عمهم قاسما الزهيري وزوجته. ثم استدعوني أنا بدوري، و لم أكن أدري من هم الحاضرون للأمسية التي أقاموها بحضور بعض المطربين، ولما حانت ساعة الاحتفال العائلي الخاص، ذهبت للمنزل المهيأ فيه الاحتفال، وكان هو منزل ابنتي «أسماء» أصلحها الله، ففوجئت بما لم أكن أتوقعه، وفوجئت بحضور أخي قاسم وزوجته، مع أفراد العائلة القريبين جدا، دون أي واحد من أصدقائي الآخرين الكثيرين، وكانت المفاجأة الأخيرة، هي قيام الأخ قاسم بإلقاء كلمة طيبة وسط الاحتفال هذا نصها كما أخرجتها ابنتي كريمة من المسجلة:

الحمد لله وحده أبريل 2004

أخي الأعز أبا بكر.

عائلته الكريمة : زوجته، بناتا وبنين، أحفادا، وأصهارا وأقارب، وأحبة بررة.

تحية طيبة متجددة.

وبعد، أستأذنكم في انتهاز هذه الفرصة، فرصة المفاجأة البهيجة، والتي دبرتموها، والتي دعيت وزوجتي للمشاركة

فيها، فرصة الاحتفال ببلوغ أخينا أبي بكر، تسعين حولا، أمد الله في عمره، ومتعه بالعافية والهناء. أستأذنكم لإلقاء كلمة وجيزة، وإن كان المقام لا يقتضي تبادل الكلمات، ذلك أنني تأثرت كثيرا بالدعوة الكريمة النابعة عن أبناء أخي أبي بكر، والدالة على أن الرابطة التي ربطتني بوالدهم، متصلة ومتواصلة، وهي ظاهرة نادرا ما تستمر، خاصة في هذا الزمان الذي نشاهد فيه التباعد شاسعا بين الجيل الصاعد، وسلفه.

إنها ظاهرة تدل على التربية الممتازة التي لقنها أخي أبوبكر لأبنائه.

ليست هذه الظاهرة إلا جانبا من جوانب شخصية الأستاذ الجليل سيدي أبي بكر، شخصية الأخ الفذة المتفردة، والتي لا أستطيع أن أشخص ولو جزءا يسيرا منها في هذه الكلمة، لتعدد آفاقها، لقد تبارى الباحثون أثناء حفلات التكريم التي أقيمت لأخي أبي بكر، وكانت أولاها التي أقامتها جريدة «العلم» وتراستها قبل خمس عشرة سنة، ولقد أشرت إلى جوانب هذه الشخصية.

الواقع أن شخصية أبي بكر برزت مبكرا، وظلت عبارة عن سلسلة ذهبية متصلة الحلقات، من الأحجار الكريمة، أزيد من سبعة عقود.

لقد استظهر الذكر الحكيم، وهو دون الخمس عشرة، واستوعب النحو، والفقه، واللغة العربية، وكثيرا من العلوم الإسلامية، بعدما استكمل العقد الثاني، على يد شيوخ أفاضل

مشهورين، وعرف في مسقط رأسه، بنشأته الخلقية العظيمة، فكان من السبعة الذين بشروا، بأن الله سيظلهم يوم لا ظل إلا ظله.

اختار مهنة التعليم، كخطة لتلقين المعارف، والتربية السليمة القويمة، فكانت مدرسة النهضة، وما تفرع منها، عبارة عن مزرعة أنبتت سنابل، استوت نباتا حسنا طيبا، وتوزعت على هذا القطر كله، فكانت بشير خير وهناء.

في نفس الوقت، انخرط في الحركة الوطنية، بل أصبح من المؤسسين لها، فرأيناه على حداثة سنه، من أعضاء الوفود التي كانت تقدم مطالبها، وتبلغ دعوتها، وفي مقدمة المناضلين، ومانفك يحمل الراية للريادة، فما من قضية عربية أو إسلامية، إلا وله نصيب في الدفاع عنها، كتابة وخطابة وحضورا.

وما من رائد عربي وإسلامي في الداخل والخارج، إلا وله وثيق الصلة به، ومشاطرة نضاله، وقد كتب عن العشرات منهم في سلسلة «رجال عرفتهم» كما نشر تراجم بعض قادة الكفاح، ممن جمعته معهم ملاحم، ونشر عن الحركة الوطنية، فجاءت مصححة للأحداث، مفندة لمزاعم الذين يريدون أن يمدحوا بما لم يفعلوا، كما نشر في مواضيع عقائدية واجتماعية وغيرها، كان آخرها «رسائل أبوية» ضمنها بعض الخطابات التي تبادلها مع أبنائه، وحفدته، وأعضاء أسرته، طارحا مختلف قضايا التربية، والمبادئ، والقيم العليا، مثلما نشر مراسلات مع إخوانه في الكفاح.

حياة أخينا العزيز أبي بكر، حياة حافلة، مافتئت أمد الله في عمره، منبعا للخير والعطاء، إنه بحق حسب المصطلح الحديث، مرجع إسلامي عربي أخلاقي، يتجسم الاعتدال فيه، دون مشادة، ولا تطرف، فيما يدعو له، وهو مثال يحتذى في عالم إسلامي، يموج بتيارات متنافرة متشاكسة، وإنه مفخرة لكم، أهل بيته : بنين وحفدة وأقارب.

بقي أن أذكر أنني حظيت بمعرفة أخي، منذ أزيد من سبعة عقود، فكان رفيق الصبا، أخذت منه الكثير، وسرت على دربه، شاطرته الحلو، والمر، والكفاح، كنت وزوجتي معه ومع أسرته، نشعر بأننا أسرة واحدة، مع طيبة الذكر للازينب، التي نرجو الله أن تكون روحها حاضرة معنا في هذا المجلس.

لقد مضى على عهد أخوتنا أزيد من سبعين حولا، ومع ذلك لم يعد فجر الشباب، كلما كرت الليالي عليه، أعددت منه أوثق الأسباب.

أرجو الله في الختام، أن تبقى راية الألفة والسعادة، ترفرف على هذه العائلة، وأن يمد الله في عمر عميدها وركيزتها الكبرى، أخي أبي بكر ويرده برداء العافية والهناء.

إنه سميع الدعاء، والسلام عليكم ورحمة الله.

قاسم الزهيري.

هذه الرسالة التي تعمدت أن أنشرها ضمن ما كتبته عن حياة فقيدنا العزيز، رغم أنها تكيل كثيرا من المدح لي ـ وهو أمر

ربما لا يليق ـ تعمدت ذلك لأمرين اثنين : أولهما : أنها تعبر عن روح قاسم الطيبة، والأخلاقية، والأخوية، وثانيهما : لأنها آخر ما كتب لي، أو عني، في حياته رحمه الله، فهي مكتوبة وملقاة بتاريخ فاتح أبريل 2004، ولقد لقي ربه راضيا مرضيا، بعد إلقائها بشهرين اثنين، حيث أنه توفي رحمه الله آخر يوم من شهر ماي 2004 لقد سجل في كلمته الأخيرة رحمه الله، مرحلة تآخينا طوال سبعين حولا، وهي مرحلة خفيفة في اللسان، كثيفة في السنوات والأيام، وإن دلت على شيء، فهي تدل على أن الأخوة إن كانت في الله، وللتعاون على الخير العام، فهي تدوم مهما طالت الأيام. قد يكون من الغريب على الأسماع، خصوصا في هذا الزمان الذي تغيرت فيه المفاهيم، وضعفت فيه علاقات الأخوة الصادقة، أن يعلم الكثيرون أن هناك صديقين، دامت صداقتهما الحميمية الصادقة، والمخلصة، أزيد من سبعين عاما طول حياتهما، لم يقع فيها ما يخدش فيها، ويشك في صدقها، ولكن القارئ عندما يقرأ ويتمعن في رسالة أو خطاب قاسم الزهيري، يدرك أن العلاقات المبنية على الصدق مع الله، ومع العبد، لابد أن تدوم وتستمر، رغم توالي الأحداث، وتعاقب الأزمان، والرسالة أو الخطاب درس ألقاه المرحوم قاسم الزهيري في آخر حياته، يجب أن تأخذ منه الأجيال الجديدة بعض العبر، حتى يمكنها أن تؤدي رسالتها الوطنية والأخلاقية في مستقبلها، وحتى تبقى الرسالة الوطنية الصادقة، سائرة في المنهج الذي سار عليه الصادقون الأولون، وحتى يتحقق لشعبنا ما يطمح إليه من عزة وكرامة وارتقاء.

وبعد، فهذه مسيرة حياة، لأخي المرحوم قاسم الزهيري، الذي عرفته وعاشرته أزيد من سبعين سنة كما قال، ولا أدعي أنني استوعبت كل الجوانب التي تتصل بحياته، ولكنها مطلق عناوين وإشارات، لابد أن يكملها بعض الباحثين الذين يرجعون إلى ما كتبه المرحوم من مقالات وأبحاث، سواء منها افتتاحيات جريدة «المغرب» اليومية، أو افتتاحيات جريدة «العلم»، أو المقالات والأبحاث التي نشر في غير هاتين الجريدتين، أو في الكتب التي كتب، وأشرت لبعضها، أو المحاضرات التي ألقاها، أو الندوات التي شارك فيها.

إن دراسة تاريخ الرجال الوطنيين الأحرار، هو الذي ينير السبيل أمام الأجيال الجديدة، وهو الذي يبقي الشعلة الإيمانية تضيء الطريق، أمام الشعوب، وتقيها من العثرات، رحم الله أخانا قاسما الزهيري، الذي لقي ربه يوم 31 ماي 2004 وأسكنه في جنة الفردوس، مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

الاثنين 14 ربيع الثاني 1426هـ / 23 ماي 2005.

أبو بكر القادري.

ملاحق :

(1) الرسائل

رسائل من الفقيد قاسم الزهيري
إلى أخيه أبي بكر القادري

«1»

الحمد لله وحده.

أخي العزيز أبو بكر.

لم أنس لحظة واحدة أني حطمت قصر آمالك، فحملتك على اليأس، وقضيت على إحدى الصداقتين اللتين كنت فخورا بهما، و لم يخالجني ريب، في كوني الوحيد الذي خيبت آمالك، وجعلتك تفكر في الانعزال، وما عداي فهو ظل زائل.

أرهفت سمعي ليلة الأمس، للانصات إلى تحليلك لنفسي، واستعراضك لزلاتي، و لم أستطع أن أقول كلمة واحدة، ولعل نظراتي كانت تنبئك بدخيلتي، ثق يا أخي أني موافقك على كل ما قلت، فإنك لم تقل إلا كلمة حق، حملك على مصارحتي بها، إخلاصك لأخوتنا، ذلك الإخلاص الذي لم أستطع تقديره فيما مضى.

والآن، فهذه فترة من حياتي، تحمل الخزي والخيبة، سأعمل فوق المستطاع على مواراتها، وسأجتهد في توطيد المستقبل، علئ دعائم جديدة متينة، ثابتة، فهل من أمل في استرداد قلب عزيز هشمته ثم ضيعته ؟

40/11/28 **أخوك الأبر : قاسم الزهيري**

«2»

الحمد لله وحده.

مكناس 41/10/15

أخي أبو بكر.

وصلتني رسالتك يوم الاثنين الماضي، وكان الأجدر أن أكون أنا البادئ، ولكن لا لوم، وقد آثرت الكلام إلى ما بعد العودة.

الحقيقة أني حين غادرت سلا، كان أمل الكتابة إليك يغمر جوانحي، وكنت سأنتهز هذه الفرصة المؤاتية، لأعالج وإياك، مشكلات طرأت على حياتينا، ونعالج أخرى هدت دعائم حياتي، وكان لي أمل في مكاتبة سعيد أيضا في ذلك، بيد أنه أعوزني الاستقرار الفكري، الذي كنت أنشده، فلم أن أنتج، و لم أصبر.

وقد حاولت فتح سلسلة تلك المكاتبات، بالصفحة التي تراها طي هذا الكتاب، حاولت أن أبثها جميع التيارات التي تتجاذبني في الوقت الراهن، مع تعطشي إلى إلهام إلاهي، إلى معجزة سماوية... وتلك الصفحة ـ كما لا أحتاج أن أؤكد لك، سر بيني، وبين وسعيد.

فعسى أن يكون لها مفعول على نفسك المتألمة الحزينة، وعساني أستعيد ما أفقدته لنفسي، فأقول جذلا : «هذه بضاعتنا ردت إلينا».

هذا ما عندي حول تلك الصفحة، وأظنها أفصح من أي شرح.

أما أحوالي الصحية، فلاتزال لم تتخذ خطة واحدة، وقد أضر بي رمضان كثيراً، فما أكسبه من تحسن صحي أثناء الليل، يذهب به النهار، على أني أجد القابلية للحديث والمطالعة والكتابة، الشيء الذي كنت قد فقدته بتاتا حين كنت بسلا.

وقد قص عليك سعيد، تفاصيل عن حياتي بدون شك، ولا أريد أن أكررها عليك، غير أني أسارع بما أُخبرك به، بأني لم أكن أعتقد أن السيد عبد الرحمن عواد على جانب كبير من الظرف واللطافة، كالتي شاهدته فيه منذ تعرّفت به، ومنذ خمسة أيام أو ستة، ونحن نسهر ونسمر، فينفتح الحديث بيننا، إما عن فكاهة أو عن جولات في الأدب.

والناظر إلينا في الوقت الراهن، يحسب أن تعارفنا يرجع إلى سنين وأعوام.

ومما لاشك فيه أنك ستقدم أثناء العيد المقبل، وستصحب عقيلتك، فكل شيء سهل الآن. فلي مفاتيح جنة، سلمها لي السيد عبد الرحمن وسوف أخرج في أسبوع العيد إلى جنة أخرى في ملكه، تقع في موقع حسن.

واكتب لي كلما سنحت لك الفرصة وبكل ما تراه جديراً بالذكر.

وإلى اللقاء.

أخوك المخلص :
قاسم الزهيري

بلغ سلامي إلى جميع الأصدقاء، وخصوصاً عبد الرحيم بوعبيد وعبد الرحمن، وقد وردت علي رسالة من الأخ عبد الرحيم، وسأجيبه قريبا، كما وردت علي رسالة من الأخ العزوزي فاعلمه أني حملت سلامه إلى «يحيى»، إذ تناولت الإفطار يومه معه بلا رقيب، ولا عتيد.

وسلم كذلك على محرز، وقل له «يْبيعْ السليعة بثمن مزيان، باش يجي يفرغ فلوسه هنا».

وأحرّ السلام إلى أخي محمد، وخالي الذي كتب إلي في ورقة طواها مائة ألف طية، فاعياني حلها، فمزقتها شر ممزق، والسلام.

ق.ز.

«3»

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده.

أخي أبو بكر.

تحية وأشواقا قلبية.

وبعد فإني في صحة طيبة، أحمد الله عليها كثيراً، ولازلت حتى الآن أرتجي كتابا من أخينا سعيد، يبدي لي فيه رأيه النهائي في ما تذاكرنا حوله، حين إقامته بمكناس، وآمل ألا يتأخر طويلا، كي أتخذ بدوري قراراً نهائيا : فإما عدت إلى سلا بعد انتهاء الشهرين، وإما أطلت المكث بمكناس، واشتغلت بشيء هنا.

وقد تكلمت أمس بالتيلفون مع المطبعة، رجاء أن أجد هناك سعيدا، فأسأله عما قر عليه عزمه، فلم يكن هناك، وطلبت من المعلم، أن يخبره بأني أنتظر أن يكلمني بواسطة التيلفون، وانتظرت طويلا فلم يفعل، والغالب على الظن، أنه مايزال يفكر في المسألة، وأنه سيقدم إلى مكناس، وقد اتخذ رأيا نهائيا يبلغه إلي.

وعلى كل فلازلت في الانتظار، ورجائي ألا يطول، ويخيل إلي أن لدي هنا أشغالا كثيرة، يمكن أن أقوم بها، فتبدو نتائج عملي في مدة وجيزة، ولا أنتظر سوى أن يبث سعيد في الأمر، ويبدي لي نتيجة تفكيره.

ولقد ذهبت بالأمس إلى المصور، واستلمت منه الصور الستة التي تجدها طيه، وأديت له ما بقي عليك؛ وقد نسي أنك

طلبت منه اثنتي عشرة صورة، وواعدني بالباقي يوم الخميس المقبل، وسوف أرسلها لك متى استلمتها.

وهذه الصور رائعة حقا، لولا ما لاحظت عقيلتك المحترمة؛ وليس عليك ولا على المصور أي ذنب في ذلك، فهكذا خلقت، وهكذا صوّرك الله، ولا أدري هل سيكون لقاسم، نصيب في إحداها ؟ ..

وفي الأخير، أرجوك أن تقرأ السلام على عقيلتك، وأخويك : مولاي عبد الله، وسيدي محمد، وعلى جميع الأصدقاء، وبالأخص ولي الله، الذي لا أفتأ أتذكره في كل لحظة، وأرجو أن يصحبه سعيد، حين يكون آتيا لزيارتي.

كما أرجوك أن تبلغ سلامي لجميع الأصدقاء، وفي الصف الأول، سيدي محمد القادري، وعبد الرحيم، وعبد الرحمن، والسي محرز، والفقيه بوعينين خضرا.

وإلى اللقاء. ودمت لأخيك المخلص

قاسم الزهيري

.4/11/41

أحر سلام عليك.

«4»

الحمد لله وحده.

أخي أبو بكر.

خطر لي غير مرة، أن أكتب إليك، وغادرت سلا، وأنا متيقن أني سأكتب لك رسائل عديدة، في كل ما يجيش في خاطري، كما كنت مصمما على مراسلة أصدقائي القليلين المنبتين بسلا، ولا أذكر منهم الآن، إلا عبد الرحيم بوعبيد وعبد الرحمن بن عبد النبي.

ولكن بمجرد مبارحتي للحمراء، أدركت أنه من المستحيل تنفيذ ما قرَّ رأيي عليه، وأدركت حمق تصميماتي، فاكتفيت بأن فتحت مسام حواسي بأجمعها، كي يتسنى لي أن أعي كل شيء مر بي، أو مررت به، وبالفعل فقد اكتسبت في هذه الأيام القلائل التي قضيتها هناك، ما لم أكن لأكتسبه، لو أني بقيت سنين طويلة بين جدران سلا.

ولعلك تريد أن أحدثك بتفصيل عن كل ما شاهدت، فأنا أيضا من الراغبين في ذلك، ولكن كيف أستطيع أن أبدأ، وكيف يتسنى لي أن أتم. إن ذلك من قبيل المحال، لأنه مجموع أحداث وأساطير، لا موضوع يجمع بينها، وإنما تفتح مدارك العقل، لكل من ساعده الحظ فالتقطها.

ويخيل إلي الآن، أني زرت مراكش لأول مرة في عمري، مع أني أتيت إليها على الأقل ثلاث مرات، من فرط ما شاهدت

فيها من جلائل الأمور، التي لم أشاهد جزءا منها أثناء سفرياتي السابقة، إنها حقا ـ كما دعيتها في رسالتك لي ـ مدينة العجائب، فهي لا تشبه في شيء ما نعهده في مدننا الهادئة المطمئنة، على أن الأسرار التي تحتوي عليها، والتي لا يطلع عليها إلا النزر القليل، أعجب وأغرب.

وقد اكتفيت بالإشارة لذلك، لأني لا أستطيع أن أحدثك عنه بتفصيل في هذه العجالة، ولو أنك لم تؤنبني في رسالتك السابقة، ما تطرق لذهني أن أخط إليك ولو هاته السطور، ولا ضير في ذلك، فحالتي أشبه شيء بحالة أعمى، تفتح بصره فجأة، فضاع رشده من وفرة المرئيات، وأخذ يهيم على وجهه، يريد الاحاطة علما بكل شيء.

أخي.

أرجو أن أجتمع بك قريبا، فقد اشتقت إليك جدا، وأكبر أملي الآن، أن أسمع صوتك بالتليفون، فهل يمكنك أن تكون غدا الخميس، بالمطبعة، على الساعة السادسة، أرجو ذلك من صميم فؤادي.

إن الأخ أحمد يقرئك السلام، وهو أيضا في أشد الاشتياق إليك.

وإلى اللقاء عما قريب. **قاسم الزهيري**

سلام لجميع الأصدقاء.

أخي.

لقد بعثت بأغلب مواد العدد الممتاز، فاسهر على أن يخرج قبل يوم الجمعة المقبلة، كي يبقى له مغزاه، وسأبعث إليكم بالمقال الافتتاحي عما قريب، وقد بوبته كما عن لي، فإن ارتأيتم إبدال التبويب فافعلوا.

أما مسألة مواد الثقافة، التي دفعت للمطبعة، فأنت أدرى بما يجب اتخاذه، وأحمد أيضا على هذا الرأي.

لم تصلني رسالتك إلا يومه، وسوف أكتب لبوشعيب.

سلامي لعبد الرحيم وعبد الرحمن.

ق.ز.

«5»

الحمد لله وحده.

الجديدة في 10 أكتوبر 1946.

أخي الأعز أبو بكر.

تحية وأشواقاً حارة.

كثيراً ما يتعلل الصديق لصديقه بكثرة الأشغال، محاولاً اقناعه بأنه يفكر فيه دائماً، ويحرص كل الحرص على الاتصال به، ولكن الأشغال ـ وما أكثرها في لغة التراسل ـ تحول دون ذلك، وكثيراً ما تكون الأشغال ستاراً للمتهاونين في حق أصدقائهم، وما أكثر من يتوارى وراءه لتبرير تكاسله، أبعد هذا يحق لي أن أعتذر عن عدم مكاتبتك بكثرة الأشغال ! إني أخشى ألا تحمل كلامي محمل الصدق، فلم يتفق لي منذ استوطنت الجديدة، أن أضربت نهائياً عن الكتابة مثل هذه المرة، فقد كتب لي أخي الطاهر أخيرا، مستغرباً ذلك مني، و لم أكتب إلى أهلي بسلا لحد الآن، رغم كثرة شوقي إليهم، والسبب الوحيد هو أن لي مدرستين، ألزمت نفسي بتسييرهما، وفتحت قسماً للشهادة الابتدائية، أعمل ما في وسعي لتهييئه لدورة جوان المقبلة؛ زيادة على العمل الوطني المحض، الذي يأكل كل أوقات الفراغ، فحتى زوجتي، أخذت تشتكي من قلة جلوسي إليها، فلا تستغرب إذا، إن لم أكن البادئ في الكتابة هذه المرة.

أخي، لقد حملت لي رسالتك عبارة الأخوة الصادقة، والاخلاص المكين، والوفاء الدائم، فثق أني أكن لك في أعماقي نفس ما عبرت عنه أحسن تعبير في كتابك؛ فليس في الوجود ما يمكن أن يفصم عرى الروابط الروحية التي تربطنا، فاغترابي هنا لا ينسيني ذكريات محببة إلى نفسي، اشتركنا فيها، وامتزجنا ببعضنا، حتى أصبح الواحد منا نسخة طبق الأصل للآخر، يسعد بسعادته، ويشقى بشقائه، فحنيني إلى تلك الأيام الحلوة، يتجدد يوماً عن يوم.

لقد هجت دفين أسراري، بما سطرته من ملاحظة علي، حيث اعتبرتني جانياً على نفسي بالخطة التي أتبعها الآن، فإني لم أتعاطها ـ رغم ما كنت أبدي ـ لأن الظروف القاسية التي مرت بنا، ألزمتني بالبحث عن شغل مؤقت فحسب، بل كنت جاداً في إيجاد عمل أشعر فيه ببعض الحرية، وبأداء قسط من العمل للبلاد، ويضمن لي في آن واحد، حياة عائلية هنيئة، فقد فكرت طويلا أثناء المحنة التي مرت بنا في مصيري، وبحثت بدقة استعداداتي وميولي، فانتهى بي الأمر إلى عدم الاستمرار على الطريقة التي كنت عليها قبل السجن، فقد وجدت ـ رغم دفاعك عنه ـ تحت رحمة رجل لا يعرف للكرامة الإنسانية، ولا حداً لاستغلال البشر، ولا مدلولا للواجب، بل كثيراً ما يسخر الواجب، والتضحية، والوطنية، لأغراضه؛ فكرهني في الحياة تحت رحمة الغير، ولولا وجودك، ولولا وجود طائفة من الإخوان، ولولا شعوري بأني أقوم ببعض الواجب المتطلب مني، لوقعت القطيعة قبل المحنة بأمد طويل، والأدهى من ذلك،

أن الحالة التي تحملتها ما يقرب من سنتين، كان فقيدنا سعيد هو المتسبب فيها، بتهاونه وإهماله، فقد كنت أعتقد خلاف ذلك إلى ما قبل السجن، وذلك ما جعلني أتيقن أن الحياة تنبني على شيء آخر، زيادة على الصداقة المتبادلة.

قلت كرهت الحياة تحت رحمة الغير، ولكن لم أجد لي مناصاً منها، فمثلنا في الفقر، وعدم الادعاء، والتلاعب بالمبادئ، والتختل، من الصعب عليه، أن تناط به مهمة يشعر فيها بحريته، ويفرغ فيها ما وهبه الله من استعداد، فمافتئت أبحث جاداً عن عمل، حتى اختارت لي العناية الإلاهية ما أنا فيه الآن، والحق أني وجدت في عملي هذا كثيرا مما أروم. نعم، إني ما خلقت لأكون معلماً كما قلت، ولكني أتسلى عن ذلك بما أشعر به من حرية ونشاط في العمل، ورفاق موافقين، ومساعدين ألفتهم وألفوني، وإقبال العناصر الطيبة عليَّ، وإلى جانب ذلك أساهم بقسطي في الحقل الوطني، مدفوعاً بضميري وغيرتي، لا أبغي من وراء ذلك إلا مصلحة بلادي، ولا على في نفسي، ولأن أبقى خامل الذكر، وينال وطني كل ما يصبو إليه، أو بعضه، خير لي ألف مرة من أن يعلو نجمي بدون فائدة.

إنك، يا أخي، تحسن الظن كثيراً باستعداداتي، ولا أظن لي استعدادات خارقة للعادة، ولا ينبغي أن تعتبر هذا مني تواضعا، بل هو عين الحقيقة، لذلك تراني لا أتطلع لما هو فوق مرتبتي، بل كل ما أتمتع به وأحمد الله عليه، هو طوية نقية، وحب خالص للصالح العام، وزهد تام في حب الظهور، وقلما ينجح صاحب هذه الخلال في الحياة، لذلك لا أرى لنفسي مقاماً في المعترك

الذي تندبني إليه حيث تكثر الشحناء، والتنافس على شيء زائل، لا قيمة له، فلكل ميدان أربابه.

أمعنى هذا، أني سأظل حيث أنا مدى العمر ؟ لا ! إن العمل الذي أتعاطاه الآن، لم أهيأ له، وإن كنت أنفق فيه جل نشاطي، ولكنني بعد تفكير طويل، رجحت أن أستمر فيه، إلى أن تتهيأ لي أسباب عمل أنفع للبلاد، وأضمن لحريتي، ولحياة أسرتي، ولا أكاد أجد اليوم بين ما أرى، عملاً كالذي أطمع فيه، فهل ماتزال تعتبرني بعد هذا جانياً على نفسي ؟ فإذا كنت تعني بها النفس الأمارة بالسوء، فنحن متفقان.

وإني لفي انتظار كتابك الموعود به قريباً، وقبل عني خالداً، وكريمة، وفريداً، وبلغ سلامي لعقيلتِك المحترمة، ووالدتك، وأخويك، العزيزين، وتسلم عليكم زوجتي، والسلام معادٌ لجميع الأصدقاء والإخوان ودمت لأخيك.

قاسم الزهيري

«6»

واشنطن في 29 نوفمبر 1957.

أخي الأعز أبو بكر.

تحية وأشواقاً.

أكتب إليك وأنا على أهبة مغادرة العاصمة الأمريكية، ولعلك تستغرب إذا قلت لك أني سأخرج منها مثلما دخلت، إذ كل الأوقات التي قضيت بها، صرفتها في مرافقة جلالة الملك في الحفلات الكثيرة التي نظمت له، أو في استوديوهات صوت امريكا، والجولات القصيرة التي قمت بها عبر شوارع العاصمة، أكدت لي أنها من أحسن العواصم، إلا أن جوها قاس جدّاً : برد قارس في الشتاء، وحرارة شديدة في الصيف.

لقد كانت حفاوة الحكومة الامريكية بجلالة الملك، مناسبة لمقامه، وخلف عاهلنا ذكراً طيبا في العاصمة، فلم نلاحظ أدنى انتقاد عليه، وكانت نتيجة المحادثات، وفق البرنامج المسطر في المغرب، كما لاحظتم ذلك من البيان المشترك.

كل من المهدي وأعوانه في السفارة، بذلوا مجهوداً جباراً لتكون الزيارة الملكية ناجحة، وقد كانت موفقة بالفعل؛ وسمعنا الاطراء الجميل على الحفلات التي أقيمت باسم

المغرب، وكذلك على مقابلات جلالة الملك في كافة الأوساط الامريكية، كما قرأنا الثناء العاطر في الصحافة.

والآن سيوالي جلالة الملك رحلته عبر البلاد الامريكية، وقد طلب مني أن أرافقه، ورغماً عن اشتغالي بالرباط، واشتياقي للأهل والأصدقاء، فسأمكث إلى أن تشرف الزيارة على النهاية.

إلى هذا الحين، أتمنى لك، وللأهل، والأبناء، كامل العافية والهناء ودمت لأخيك.

قاسم الزهيري

«7»

الحمد لله.

ليغوس في 2 دجنبر 1960.

أخي الأعز أبا بكر.

تحيات وأشواقاً حارة.

هممت عدة مرات أن أكتب إليك؛ وما أكثر المناسبات والخواطر التي تشجع على الكتابة. ولكنني أمسك في كل مرة، خوفاً من أن يكون فيما قد أكتبه حيف أو ظلم بالنسبة لهذه الأقطار التي أمر بها، ولهذه الشعوب التي أعيش بينها ساعات محدودة، فقد يتخيل الإنسان مما يشاهده، أنه قد نفذ إلى عمق الحقيقة، فلا يلبث أن يدرك جهله. وكثيراً ما يخطئ الكتاب الذين يسرعون في إصدار الأحكام دون روية.

هذا ما يقعد بي عن الكتابة؛ وهو ما يدفعني كذلك إلى الزيادة في البحث والاستقصاء، وكل ما وصلت إليه وراء رحلتي عبر القارة الافريقية، هو شغفي بشؤونها، وشؤون شعوبها، مع زيادة عطف لهذه الشعوب التي تفتحت اليوم للحياة، بعدما مرت عليها قرون من الاستعباد والاستغلال، وكم أتمنى لهذه الشعوب، أن تطوي المراحل في أقل ما يمكن من الوقت، وتبلغ درجة عالية من التقدم والحضارة.

فلا يمكنك يا أخي، أن تتصور الاجرام الذي ارتكبته الدول الأوروبية في حق هذه الشعوب، باهمال شؤونها، وتركها على حالة

مزرية من التأخر. إن كل فضل أوروبا، ينحصر في إيقاظ وعي هذه الشعوب، وحملها على الكفاح من أجل التحرر، كخطوة أولى في سبيل التقدم والتطور، أما ماعدا ذلك فالأغلبية الساحقة من أبناء افريقيا السوداء، يعيشون في جهالة مطبقة، وأوضاع من البؤس، والقلة لا تختلف عن الأوضاع التي كان يعيش فيها أجدادهم.

وإذا استثنينا نخبة من المتعلمين، أو المحظوظين في كل بلد أفريقي، ألفينا السواد الأعظم من شعوبهم، في حالة سيئة، لا فرق في ذلك بين المستعمرات التي كانت قبل في يد البريطانيين، أو الفرنسيين، ويبدو لي من المظاهر التي وقفت عليها، أن حالنا في المغرب، أحسن من حالهم على وجه الاجمال.

لكن الشيء الذي يزعجني، هو أنني لا أرى ـ فيما عدا غينيا وربما مالي ـ نية صادقة نحو الاصلاح، وتدارك الأحوال، وهي ملاحظة تنطبق علينا نحن كذلك، إن ما قد يشاهده الإنسان من جد في الصين الشعبية بالخصوص، والدول الاشتراكية عموماً ـ وقد رأيت ذلك بنفسك ـ لا يلقاه هنا. وما لم تلهم الدول الافريقية الناشئة إلى الصواب، وتشمر على ساعد الجد، وتعالج تخلفها ومشاكلها الاجتماعية المتعددة، وتترك جانباً طريق السهولة، فلا أمل لها في اللحاق بركب الدول المتحضرة، ولا رجاء لها في التحرر الحقيقي، والافلات من يد أوروبا المستغلة المستعبدة.

هذه ملاحظة من جملة الخواطر التي تطرق ذهني، كتبتها إليك، وأملي أن تكون والعائلة بخير وسلامي على الجميع.

قاسم الزهيري

«8»

الحمد لله.

دكار في 8 مارس 1961.

أخي الأعز أبا بكر.

أبعث إليك وإلى كافة الأصدقاء والأحباب، بتحياتي وأشواقي، من هذا البلد البعيد، الذي أشعر فيه بغربة لم أشعر بها قط في حياتي، وكأني قضيت دهراً انقطعت فيه كل صلة بيني وبين العالم الذي كنت أعيش فيه، والإخوان الذين لم أستطع فراقهم، والسلو عنهم، خصوصاً بعد المصيبة العظمى التي حلت بالبلاد، في فقد رائدها الأمين تغمده الله برحمته الواسعة، لقد كنت أتصور وزوجتي فداحة الهول الذي نزل بكم وبنا جميعاً، وبكينا طويلا، وشاركناكم الألم والحسرة عن بعد، ثم فوضنا أمرنا إلى الله، راجين منه العون لبلادنا في هذه الخسارة التي منيت بها.

إن كل تفكيري في هذه الظروف العصيبة، متجه إلى مصير البلاد، وكنت أجد بعض العزاء في التعاطف الذي أعقب المصيبة، والرحمة التي حلت بأفئدة المواطنين على اختلاف نزعاتهم، وكنت آمل ـ كما كان يأمل الجميع، ولاشك ـ أن تكون الكارثة حافزاً على الاتحاد، وجمع الشمل، والاتجاه في طريق البناء، تحت قيادة ملك شاب، تعهد بترسم خطى والده العظيم.

وانتظرت أن أسمع النبأ السار : نبأ التئام الصفوف، ونبذ الشقاق، والعمل يداً في يد، وطال الانتظار.. ثم أخذت الأخبار ترد علينا بما يشعر بضعف التيار الذي اجتاح صفوف المواطنين، منذ اليوم الأول لوفاة محمد الخامس رحمه الله، وعبثاً أحاول أن أقرأ في الصحف الأجنبية التي ترد إلى دكار، والإذاعات التي أتلقفها في كل وقت، ما يبعث على الاطمئنان، بل كل ما ينتهي إلى هذا الساحل السحيق، يبعث على القلق.

فماذا جرى ؟

إنك لتعلم أفكار أخيك، وتخوفاته على مصير بلاده، وتعلم رأيه في المحنة التي يعانيها وطننا، بسبب الشقاق والتنافر الموجودين بين المخلصين، وما جره تخاذلهم من ويلات ومصائب، حتى ضقنا ذرعاً كما ضاق الجميع، بالتناحر والخلاف، وتأكد لنا أن الخلاص في رأب الصدع، وهو ائتلاف القلوب من جديد.

وكانت فرصة سانحة في الكارثة التي حلت بالمغرب، وصعود ملك شاب، وتحمله لأثقل حمل ورثه شخص في مثل سنه، وحسبت أنه كان في المستطاع الاتفاق على برنامج محدود، وخطة للعمل؛ والتعاون مع العاهل الجديد، بحسن نية على ما فيه المصلحة العامة.

فهل ضاعت هذه الفرصة النادرة ؟ إنني لا أكاد أصدق أن يبلغ بنا، أو بفئة من المواطنين، عدم الشعور بما يقتضيه الصالح العام هذه الدرجة ! لست أريد الحكم من بعيد وأنا لا أملك من

الأخبار، ما ينير لي الطريق، وكل أملي ـ في هذا الوقت ـ أن تخلص النيات، ويتعاون الجميع على البناء متحدين متآزرين.

وإني لأتصور الدور الكبير الذي يمكنك أن تقوم به في هذا الاتجاه : في التقارب، والتآلف، والتعاون على خدمة المصلحة الوطنية، وإني لأعرف إحساسك بهذه المصلحة في أشد الظروف، ورأيك الذي لم يتغير، في أقسى الأوقات التي مرت على بلادنا.

لذا أتوجه إليك بالرجاء، أن تبذل كل ما في المستطاع، كيلا لا تضيع بلادنا هذه الفرصة التي قد لا تسنح لها مرة أخرى، وأن تسعى لدى الإخوان ـ في أي جهة كانوا ـ بكل ما لديك من قوة الإيمان، والاقناع، كي يتغلبوا على أنفسهم، فإنقاذ وطننا، رهن باتحاد أبنائه المخلصين.

وإذا كان لي رجاء بعد هذا، فهو أن توافني بما ينير الطريق في وجهي، ويخفف من الغربة التي أعانيها.

تحياتي وأشواقي معادة إلى الجميع ودمت لأخيك.

قاسم الزهيري

«9»

دكار في 30 أكتوبر 1961.

الحمد لله.

أخي الأعز أبا بكر.

تحياتي وأشواقي الأخوية.

لقد مر زمن طويل على مراسلاتنا، وإني لأشعر بالتقصير في جانبك، وإن كنت ألتمس لنفسي بعض العذر في كثرة الأشغال، ووفرة المتاعب المترتبة عن استقرار السفارة والسكن، وقلة العون، وصعوبة الطقس، وخاصة في الشهور الثلاثة الماضية، زيادة على ما أصادفه من المضايقات والإهمال من الرباط.

ولا تسأل عن الغربة التي أحس بها، وتحس بها العائلة في هذا البلد، فلم يعد أحد يفكر فينا، أو يكتب لنا، ونظل ندور على أنفسنا، ونتفكر الأصدقاء والأحباب واحداً واحداً، محاولين التكهن بأحوالهم، ونكتفي بقراءة ما يرد علينا من الصحف، أو ما نلتقطه بواسطة الإذاعة، أما أنا فأطيل التفكير في أحوالنا بالداخل.

حين عدت إلى المغرب منذ أزيد من ثلاثة شهور، كنت والعائلة في الاجازة بفرنسا، وآمل أن تكونوا قد استرحتم جيدا، ورجعتم ممتلئين نشاطاً وحيوية.

ومما لاشك فيه أنك مازلت في عزلتك، وأظن أن ارتباك الحالة، لا يزيدك إلا اقتناعاً بضرورة الانعزال عن كل عمل سياسي، مكتفياً بنشاطك الدراسي، الذي تعتبره أجدى وأنفع للبلاد، إنني أفهم جيداً الدوافع التي تحملك على هذه العزلة، كما أدرك أن «السياسة» كما أصبح يتعاطاها بعض المحترفين، لا تتفق وطبيعتك، ونفسيتك، والتكوين الوطني الذي نشأت عليه منذ صغرك.

ولعلنا نتفق كثيراً في هذا الشأن، وإن كنت لا أرى رأيك في الانعزال نهائياً، واسمح لي أن أصارحك مرة أخرى بالأمر، بعد المذاكرات الطويلة التي جرت بيننا.

إنني أقرأ ما يكتب في الصحافة المغربية، وأطيل التفكير في كل ما يكتبه الجانبان، وأنتهي في كل مرة بالنتيجة الآتية : أن الحقيقة لا ينفرد بها جانب دون آخر، ولكن الجانب المخاصم لنا، إنما يتحرك عن سوء نية في كل ما يدعي، إن جل ما يصدر عنه من أفكار، حق أريد به باطل، ولا أدل على ذلك من التصريح الصحافي الأخير، لصديقنا عبد الرحيم، وهممت بالكتابة إليه، فحررت صفحة ثم عدلت.. بعد ما تبين لي عدم فائدة هذا العمل.

إنني كلما فكرت، زدت اقتناعاً بأن المسؤولية فيما يشتكون منه اليوم من «حكم فردي»، ترجع إلى تشتيت الكلمة الذي كانوا من أكبر العوامل فيه، والمعارضة البليدة التي يقومون بها اليوم، ستؤدي إلى ما هو أدهى في الحكم الفردي.

كل ما نرتجي، هو أن يعود الجانبان إلى شيء من التعقل، لتفهم المصلحة العامة على حقيقتها.

أخي.

أكتفي بهذا القدر اليوم مؤملاً أن نعود إلى المراسلة بتطويل.

تحياتي للعائلة الكريمة واحداً واحداً، وللأصدقاء، ودمت في هناء لأخيك.

قاسم الزهيري

«10»

دكار في 28 دجنبر 1961.

الحمد لله.

أخي الأعز أبا بكر.

تحية خالصة، مع أحر الأشواق، وأطيب الذكريات إليك وإلى عائلتك الكريمة.

وبعد وصلني بالأمس خطابك الذي طلبت فيه مني حديثاً في نطاق سلسلة المحاضرات التي نظمتها إدارة ثانوية النهضة، فأشكر إخوتك على هذه الالتفاتة الطيبة، معبراً لك عن تقديري للجهود التي تبذلها، للمساهمة في إعادة صفاء المجتمع، مما لحقه من تعفن في السنوات الأخيرة، والمساعي الكريمة، لتطهير النفوس، وتوجيهها إلى ما فيه صلاحها.

ويسعدني أن ألبي طلبك بكامل الغبطة والانشراح، مؤملاً أن يكون لي أجر المساهمة بنصيب متواضع في المجهود المشكور الذي تقوم به.

وإذا وافقت، فسيتناول موضوع الحديث : الممالك الإسلامية بافريقيا السوداء وحاضر الإسلام في هذه البلاد.

وهو موضوع فيه تذكير وتنبيه.

وسأنكب من الآن على جمع عناصره، إذ يقتضي ذلك إعادة قراءة عدة مصادر، سبق أن طالعتها بسرعة، وآمل أن أوافيك بنص الحديث في ظرف شهر، وإذا يسر الله وكنت بالمغرب، فسأكون مسروراً بإلقائه بنفسي.

تحياتي وتحيات زوجتي، إلى للأَّزينب، وخالد، وبقية أبنائك والوالدة، ومولاي عبد الله وسيدي محمد، وأبنائهما وأخي محمد وكافة الأصدقاء والأحباب.

ودمت لأخيك الوفي.

قاسم الزهيري

«11»

بلغراد في 20 يناير 1963.

الحمد لله.

أخي الأعز أبا بكر.

تحيات زكية مع أحر الأشواق.

لقد مر زمن طويل لم نتصل فيه، وكان من الواجب ألا تنقطع المراسلات بيننا، خاصة بعد الأحداث المهمة التي عاشتها البلاد في الفترة الأخيرة، وكان لك فضل المشاركة فيها بصفة مباشرة، ولست أكتمك حظي من المسؤولية في هذا الانقطاع؛ ولكن هل من اللازم أن أكون البادئ ؟ لاشك أنك تذكر بعض الأحيان، صديقك الذي اضطرته الظروف إلى مفارقة الأهل والأصدقاء والإخوان، للعمل بعيداً عن البلاد، أفلا تجد أحياناً دافعاً يحفزك إلى خطّ كلمة قصيرة إليه ؟ لقد انتظرت طويلاً بدون فائدة، وهذا شأني مع كافة الأصدقاء بدون استثناء؛ وكثير منهم كتبت لهم، فلم يردوا بأدنى كلمة، ولولا الرسائل التي أتلقاها من أبنائي، وأحياناً من أخي محمد، ولولا الصحف التي تحمل أحياناً بعض أخبار الأصدقاء، لانقطع كل سبب بيننا.

ويعلم الله أن ذكراك لا تبرح مخيلتي، وأن الشوق إليك لم ينقطع طوال هذه المدة، وإن انقطعت أسباب الاتصال، وكثيراً ما تتهيأ الفرص، فتعمر مجالسنا هنا بذكرك، والحديث عن أسرتك العزيزة، مستعرضين كل واحد من ذويك وأبنائك،

وجوكم العائلي اللطيف؛ خصوصاً حين نقرأ لك أو عنك، أخباراً في الصحف، أو نرى صورتك، فتهتاج كوامن الشوق إليكم جميعاً. إننا لنرجو لكم حياة طيبة ناعمة، مليئة بالعافية وهناء البال.

أخي،

الحقيقة أنني منذ شهور، وأنا أعلل النفس بالكتابة لك، وفي كل مرة أحمل القلم، تزدحم الخواطر في مخيلتي، فلا أدري بماذا أبدأ، ولا بماذا أنتهي، ويشق علي أن أجمع شتات الفكر، فأطرح القلم، مرجئاً الكتابة إلى فرصة أخرى، ذلك أني أود أن أبثك في رسائلي، بعض ما أشعر به حول قضايانا الداخلية، وأنا بعيد عن الأحداث، نظراً للتجاوب الموجود بيننا، وأستفسرك عما غمض عني، وعن رأيك الخاص فيها، مما لم آلف مطارحة الحديث فيه مع غيرك، وأخيراً.. وبعد مضي وقت طويل ها أنذا أكتب لك كيفما اتفق.

تتبعت بمزيد الاهتمام، الحملة الموفقة التي خضتموها في سبيل الدستور، والبلاء الحسن الذي تحملتموه لبناء حياة ديمقراطية؛ وكنت على وفاق تام معكم، رغم بعد المسافة وانعدام التشاور، ومما لاشك فيه أن البلاد حققت كسباً عظيماً، بابدال نظام الحكم المطلق، بالملكية الدستورية، وإن كان الدستور يتضمن العديد من القيود التي يمكن رجعها مع الزمن، وبانسجام مع العرش، والمأمول أن تسير المؤسسات الدستورية في بلادنا، على غرار ما تتمشى عليه في أرقى الدول الديمقراطية.

فإذا توفرت حسن النية، والرغبة في تقديم المصلحة العامة، سهل الوصول إلى تعاون وثيق بين الأداة التشريعية، والأداة التنفيذية، والمعارضة كذلك، فلمَ لا ؟ أما إذا كانت الأخرى، فقد لا نأمن غوائل الهيجان، وعدم الاستقرار، مما قد يؤدي في النهاية إلى ما نشاهده من انعدام الحرية، في كثير من الأقطار العربية.

لقد كان استعفاء إخواننا من الحكومة، مفاجأة لي، خصوصاً بعد الدور الذي قام به الحزب في نصرة مشروع الدستور؛ واطلعت على الأسباب التي عللوا بها خروجهم من الحكومة. ولاشك عندي أن هناك أسباباً أخرى، لم يكشف النقاب عنها بعد.

ويخيل لي أن إعداد الانتخابات التشريعية، والخوف من حصول الحزب على نجاح عظيم فيها، هو العامل الأساسي في هذا الإبعاد. أما ما قيل من توجيه اقتصادي جديد، واخلال ببعض المبادئ، فلا يعدوان أن يكونا تغطية للأسباب الحقيقية، و لم يكن من الصعب ـ لو أريد الاحتفاظ بالعناصر الحزبية في الحكومة ـ الوصول إلى تفاهم، لاشك أنكم درستم بإمعان، العواقب المحتملة لخروجنا من الحكم، في هذه الظروف الدقيقة، حيث سيهيأ القانون الانتخابي، والاقتراحات على مختلف المستويات، مما سيفضي في النهاية إلى الانتخابات التشريعية؛ كل ذلك سيعد في غيبة عنا، وبدون أن تكون لنا أية رقابة عليه. ولا يخفى ما في ذلك من خسارة. أفما كان الأولى أن نتحمل مثلما تحملنا في الماضي، تلافياً لعواقب غيابنا ؟ أنتم أدرى بالموقف على كل حال.

إن الـهـدف المهـم في الـوقت الحاضـر، هـو كسب الانتخاب، ولاشك أن الحزب بجميع تشكيلاته، سيعبأ لتحقيق هذه الغاية، وهنا نجد أنفسنا في صعيد واحد مع خصومنا بالأمس، ممن لا توجد بيننا وبينهم خلافات عميقة، كالخلافات الموجودة مع الذين وضعنا أيدينا في أيديهم حقبة من الزمان.

ولا يضيرنا أن نعود إلى أولئك الخصوم، لنتفق معهم سياسياً على نقاط معينة؛ ماعدا إذا كنا موقنين بالانتصار على كافة الخصوم من مختلف النزعات، وتذليل العراقيل التي ستنصب لنا في جميع الجهات، الملاحظ أن حركتنا لاتزال أكبر حركة في البلاد، بتنظيماتها، ورجالها، وبرنامجها؛ والخصوم الذين يدعون اليسارية، مهما كان إخفاقهم في الاستفتاء الأخير، فإن الشعارات التي يرفعونها، تستهوي طبقات معينة، أما ماعداهم فلا إخالهم يكونون حركة قادرة على الصمود، هذه هذ الحالة التي تركت عليها الموقف السياسي. وهو الانطباع الذي استخلصته عن مراقبة نتائج الاستفتاء الأخير من بعيد، وإن كان أحد الصحفيين الغربيين، ممن مكثوا في المغرب خلال الحملة الانتخابية، كتب لي معلناً أن الفائزين في الحقيقة هم قادة الحركة الشعبية، وأن الناس يدخلون أفواجاً أفواجاً في هذه الحركة، ولست أدري مبلغ هذا الزعم من الحقيقة.

مهما يكن، فأنتم في قلب المعركة؛ ولا أملك لكم من هذا البلد النائي، إلا الدعاء بالتوفيق.

أخي،

أكتب إليك في يوم شديد القر، حيث تزيد درجة الطقس في الخارج عن عشرين تحت الصفر، ويبلغ الثلج علو نصف متر، وتنقطع جميع وسائل الاتصال، ولا أدري هل أستطيع الذهاب غداً إلى مكاتب السفارة، فالسيارة لا تستطيع أن تخترق أكوام الثلوج، منذ أوائل نوفمبر، والطقس في تغير، وقد وصل القمة في هذا الأسبوع، وغالباً ما أمكث في البيت بعد الرجوع من السفارة، فيأتي عندنا الأصدقاء، أو نروح عندهم لقضاء بعض الوقت، والكل بخير ولله الحمد، زوجتي تسلم عليكم، وسلم منا على عقيلتك، وقبل الأبناء، بلغ سلامنا كذلك للوالدة ومولاي عبد الله، وسيدي محمد، وأبنائهم وكافة الأصدقاء، ودمت في حفظ الله لأخيكم.

قاسم الزهيري

«12»

الحمد لله.

بلغراد في 12 نوفمبر 1963.

أخي الأعز أبا بكر.

تحياتي وأشواقي.

قرأت اليوم في جريدة «العلم» أنك خرجت من المستشفى بعد قضاء أسبوع، أجريت لك خلاله عملية جراحية، وقد عجبت لهذا الخبر، إذ لم أسمع قبل بما ألم بصحتك الغالية من انحراف، وقد كان أخونا الحاج أحمد بناني، أشار لي إشارة خفيفة إلى توعك في صحتك، وحيث كانت المكالمة التليفونية من دمشق عسيرة جدّاً، فلم أصدق ما سمعته، أتمنى أن تكون قد شوفيت نهائياً، وأنتظر منك كلمة تطمئنني فيها على حالتك.

لم أكتب لك حتى اليوم، نظراً للأشغال الكثيرة الناجمة عن الظروف العصيبة التي اجتازتها بلادنا، فقد كنا نحن أيضاً مجندين في هذه الديار، لتفسير ما حدث، وتصحيح الدعايات، والرد على المتهجمين، والاتصال بالرسميين، وقادة الرأي العام، وقد خالجنا ـ ولله الحمد ـ التوفيق، حيث استطعنا أن نقنع من بيدهم الحل والعقد؛ وظلت يوغوسلافيا ـ خلافاً لكثير من الدول الاشتراكية ـ في موقف الحياد.

لم نكن نتصور في يوم من الأيام، أننا سنلتحم مع إخوان لنا، تجمعنا وإياهم أوثق الروابط، وبذل المغرب في سبيل حريتهم واستقلال بلادهم، أقصى ما يمكن من الجهد والتضحية. وكل ما نتمناه أن يعتبروا بهذا الدرس، ويعودوا إلى محجة الصواب، فنسوي خلافاتنا في جو من الإخاء والمنفعة المتبادلة.

انقطعت عني أخبار البلاد والأصدقاء والأحباب، إلا ما أراه أحياناً في الصحافة، وهو أقل القليل، آمل أن يكون الجميع بخير.

انتظرنا قدوم خالد ـ كما وعدنا بذلك ـ خلال شتمبر وأكتوبر وها قد أوشك فصل الخريف أن ينتهي؛ فلا أدري هل عدل عن رأيه ؟ كما لا أدري هل وجهت كريمة إلى فرنسا، كما كنت تنوي أم لا ؟

ونحن كما تعهدنا؛ وإن كان الجو قد طاب هنا واعتدل، والخريف في هذا البلد من أحسن الفصول، إن لم يكن أحسنها على الإطلاق، ونحن نذكرك كثيراً، وخصوصاً لما قمت وزوجتي برحلة رسمية إلى جمهورية بوسنة، وزرت رئيس العلماء، وقد سألني عنك، واليوم زارني في السفارة هو والأستاذ عبد الرحمن خوتيتسن، (الرجمان) وعاد للسؤال عنك، فخبرته بنشاطك، وبعزمك على إصدار مجلة دينية، فلا تنس أن توافي جمعية علماء المسلمين بها، وهو يسأل كذلك عن الأستاذ علال الفاسي، وحبذا لو اتصل به، ووجه له كتابه الجديد «مقاصد الشريعة الإسلامية» الذي رأيت الإعلان عنه،

والجمعية في أمس الحاجة إلى كتب إسلامية، كما أنها محتاجة إلى العون الروحي، لقد تهدم في مدينة سكوبييه أزيد من خمسة وعشرين مسجداً أثناء الزلزال، ومنها مساجد تاريخية، تزيد عن أربعة قرون، والجمعية تستنجد بذوي الهمم في العالم الإسلامي، لإعانتها على إعادة بناء ما تهدم من بيوت الله.

أخي،

أرجوك أن تسلم على عقيلتك المحترمة، وإخوتك وجميع الأصدقاء، وتقبل الأبناء الأبرار، وأرجو لك ختاما، العافية وراحة البال.

قاسم الزهيري

«13»

بلغراد في 7 مارس 1963.

الحمد لله.

أخي أبا بكر.

تحياتي القلبية الخالصة لك ولأسرتك الكريمة، مع أعز المتمنيات، وصادق التهاني لكم بعيد الفطر المبارك، راجياً لكم دوام العافية والهناء. لقد وصلني خطابك الرقيق، فحمل لي نسمة من نسمات الصفاء والمودة التي ألفتها منك منذ سعدت بصداقتك، وقد أنست به كثيراً في غربتي الطويلة، فأعدت قراءته مراراً، واستفدت الشيء الكثير عن الحالة في الداخل، ولا أخفي عنك أنني كثير الإشفاق والقلق على ما آلت إليه هذه الحالة منذ شهرين، فكثيراً ما تمر علي الساعات، لا يغمض لي فيها جفن بالليل، أطيل التفكير، وأقلب الرأي على جميع الوجوه، دون أن أهتدي إلى ما يطمئن له البال. و لم أكن في فترة من الفترات السابقة ـ حتى في أحلك الظروف ـ قلقاً منزعجاً مثلما أنا اليوم، وإذا كانت رسالتك قد رفعت بعض الحجب عما كان غامضاً في ذهني، فإنها لم تقنعني تمام الاقناع، بصواب الخطة التي اتخذت لمواجهة مشاكلنا الحاضرة، وأخشى ما أخشاه، أن تستفحل هذه المشاكل، في وقت تحتاج فيها بلادنا أكثر مما مضى، إلى بقائنا في منصب المسؤولية، لترقب الأحداث، ونوجهها قدر الإمكان.

لقد دخل أصدقاؤنا إلى الحكومة في ظروف غير ملائمة بالمرة، وتحمل الحزب مسؤولية دخولهم، رغم الانتقادات التي كانت توجه إليهم من جميع الجهات، ثم تبين من بعد، فائدة هذا العمل. وقد خرجوا اليوم في وقت كان بقاؤهم فيه ضرورياً، حتى تنتظم الأحوال؛ ولا يغيب عني ما كانوا يتعرضون له من العراقيل والصعاب، أفما كان الأولى، أن يصبروا ويظلوا في منصب المسؤولية، بدلاً من أن يفسحوا المجال للغير، في هذا الظرف المهم من حياة البلاد ؟ وحيث قرروا الخروج، أفما كان الأولى أن يقدموا الاصلاحات الأساسية، حول القضاء والتأميم وغيرهما للمصادقة، حتى إذا لم تقبل جعلوا من ذلك ذريعة لخروجهم ؟ وكان ينبغي أن يقدم البيان حول التعادلية الاقتصادية، حينما كانوا في الحكم، ليكون مبرراً جديداً، خرجوا من الحكم ـ إذا صح أنهم استعفوا بمحض إرادتهم ـ في الوقت الذي تهيأ فيه الانتخابات على جميع المستويات، فأي ضمان يبقى لنا لإجراء الانتخابات بحرية ونزاهة ؟ ثم إن للحكم تأثيره في الناخبين.

ومن جهة أخرى ألاحظ عدم وجود تقارب بيننا وبين المعارضين الآخرين، الذين نتفق معهم في كثير من الآراء؛ بينما يقضي المنطق السياسي، أن نتعاون معهم ـ ولو موقتاً ـ في هذه الظروف، الحقيقة أنني لم أعد أفهم الخطة التي يسير عليها الحزب؛ وقد كانت مفهومة قبل، رغم الانتقادات الموجهة إليها، وأرجو أن أكون خاطئاً.. فلا يستبعد أن تكون هناك اعتبارات أجهلها؛ فآمل أن تزيدني شرحاً.

أخي،

أخبرني الأخ محمد أنك عازم على زيارتي قريباً، ولا تسأل عن الفرح الذي غمرني، وغمر أهلي، فنحن في انتظارك على أحر من الجمر، وآمل أن أتوصل برسالة منك، تحدد لي فيها موعد الزيارة، وسوف نذهب معاً لجمهورية بوسنة الإسلامية، التي لم أزرها بعد، كما يمكننا زيارة نواح أخرى من يوغوسلافيا. اكتب لي على عجل.

أختم كتابي هذا مسلماً على الأهل، ومقبلاً الأبناء واحداً واحداً، وسلم مني كذلك على الوالدة والأخوين : محمد ومولاي عبد الله، ومحمد القادري وسيدي سعيد وأحمد وعبد الرحمن وكافة الأصدقاء والأحباب، ومن يسأل عنا، وإلى اللقاء قريبا.

أخوك قاسم الزهيري

«14»

بلغراد في 25 ديسمبر 1963.

الحمد لله.

أخي الأعز أبو بكر.

تحياتي وأشواقي.

وصلني جوابك منذ خمسة أيام فقط، بعد ما مر علي إرساله من المغرب زهاء شهر؛ وقد استبطأته كثيراً، وأحمد الله على تمتعك بالعافية، وأهنئك على نشاطك في سبيل المبادئ التي وقفت لها حياتك، متمنياً لك اطراد الصحة، وهناء البال والضمير، كما أشكر لأخوتك الأخبار التي ضمنتها خطابك عن أحوال الداخل، مما يفوتني في هذا المكان النائي، بسبب انقطاع الاتصال بيني وبين الرفاق الذين أكتب لهم فلا يجيبون، وأرجو أن تستمر لأستروح من رسائلك نسيم البلاد، ويتسنى لي أن أتتبع أخبار الجميع، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

كنت وزوجتي ننتظر خالد بفارغ الصبر، وإذا كانت ظروفه الخاصة لم تسمح له بالمجيء في الخريف الماضي، فنأمل أن يجد من عطلة الربيع، بعض الأيام لزيارتنا مع كريمة، طالما نحن بيوغسلافيا، ولا أريد لهما المجيء عندنا في هذا الفصل، حيث البلاد كلها مكسوة بالثلوج، ويشتد البرد، ويستحيل التنقل بسبب الجليد، ويقبع كل واحد في منزله، إننا نقضي الآن معظم الوقت منكمشين على أنفسنا في البيت، لا نبرحه، فلا تسل

على الملل، لكن الكل ـ والحمد لله ـ يتمتع بالصحة، وقد شفيت دَادَة، من مرض طويل خفنا منه على حياتها، وحتى.. مريانا، تسلم عليك، وقد رأتك في المنام ليلة وصول خطابك، وابلاغنا إياها سلامك، ولا حاجة بي إلى ذكر أشواقنا للبلد والأحبة والأصدقاء.. فقد بلغ الحنين أقصاه.

ارتقبت طويلاً العدد الأول من مجلة «الإيمان» الذي أخبرتني بقرب صدوره ورأيت الإعلان عنه، وقد وصلني أمس، فانكببت عليه حتى أتممته، فأهنئك وأهنئ جمعية شباب النهضة، بخروج هذا المشروع الطيب إلى الوجود، وأتمنى أن تتاح لي الفرصة للمساهمة فيه ببعض المواضيع التي تعتلج في نفسي، ولا أجد الاستقرار الكافي لصياغتها، وربما اغتنمت هذا الأسبوع، حيث يقل النشاط، لأتفرغ لبعضها، وكيفما كان الأمر، فيمكنك أن تعتمد علي، ومما لاشك فيه أنك قد تتطلع إلى رأيي في العدد الأول، وسأبديه لك بكل صراحة، طالباً منك عدم المؤاخذة فيما قد لا يوافقك منه، وما كان لي أن أكتمك رأيي في هذه المجلة الناشئة، التي أرادتها الجمعية ـ كما جاء في تقديمك ـ أداة في «يد الشباب المسلم» تجعله «يتسلح بسلاح المعرفة والإيمان، ليستطيع أن يصمد أمام الأحداث، ويقارع البرهان بالبرهان، ويتعرف إلى حقيقة دينه، ويدرسه دراسة واعية، خالية من كل جمود، بعيدة عن كل تعصب، ويدافع عنه بحرارة المؤمن الواعي العليم»، إلى غير ذلك من الأهداف الكبرى التي سطرتها في كلمتك، وأرجو أن تتحقق في الأعداد المقبلة من هذه المجلة، التي أتمنى لها عمراً مديداً، ومن السبق

وقلة الانصاف الحكم من خلال عدد واحد، لكن الغيرة على مثل هذا المشروع، تدفعني إلى مبادرتك بملاحظاتي عليه.

لا أحتاج إلى التعرض إلى ما كتبه ذوو الأقلام المعروفة من أمثال علال، وغلاب، وذوي الفكر مثل ابن عبود (وإن كان الجزء المنشور من محاضرته فيه كثير من التعقيد وقلة الربط)، فإنتاج هؤلاء، يرفع من مستوى المجلة ؛ ولا يخلو من فائدة، قلت أو كثرت، ومن أحسن الأبحاث المنشورة، بحث السائح الذي أخذ يجلي في ما يكتبه؛ وكذلك الدراسة التي كتبها أحمد القادري عن ابن شهيد، بأسلوب طريف، ينم عن استعداد كبير في ميدان البحث، إن استمر على هذا المنوال، وقد أعجبت كثيراً بمقال السحيمي، الذي أصبح يعتبر من كتاب المقال اللامعين في الجيل الصاعد.. وربما في الطليعة.

ومما يؤسف له أن تحمل المجلة إلى جانب هذا الانتاج المفيد، «إنشاءات» قد لا يحررها حتى التلاميذ المتوسطون في الأقسام الأولى من الثانوي، وأدرج في هذا النوع ذلك الهراء الذي كتبه (فلان)، بعنوان طنان، والهذيان الذي كتبه آخر، والكلام الفارغ المعاد للمرحومة المعروفة، وما أنتجه عضو للجمعية من أفكار فجة، تنبئ عن جهل تام بالموضوع الذي اختاره وأساء إليه أيما إساءة. ليس معنى الانتماء إلى الجمعية، الالتزام بالكتابة، ولو لم يكن للكاتب أفكار.. ولو لم يكن له أسلوب، فإذا لم يكن يعرف الكتابة، فليدعها جانباً؛ ولا ينبغي أن يقول ما شاء، كيفما شاء، إن مثل هذه المقالات تسيء للمثل الذي تريد أن تخدمه، من حيث تحسب أنها تنفعه. ومن مصلحة الهدف الذي تسعى له المجلة، أن

تبقى هذه في مستوى محبب إلى نفوس قارئيها من الشباب، وإلا أعرضوا عنها وسقطت ـ لا قدر الله ـ مثلما تسقط أوراق الخريف.

قد نظنني قاسياً في حكمي، وما قلت إلا ما أراه حقا؛ وكل من ذكرتهم إخوة أو رفاق، أكن لهم خالص الود والوفاء، وإنما هي الغيرة على هذا المشروع، الذي تبنيته وأودعته كثيراً من آمالك، فمن الوفاء أن أصارحك برأيي فيه.

وأرى أن تتجنب في الأعداد المقبلة المقالات المتسلسلة، فهذا النوع من الكتابة تضيع فائدته في المجلات الشهرية.

ولا أختم هذه الملاحظات، دون أن أتعرض إلى ملاحظة بسيطة : فقد حلى اسم كل واحد من الكتاب، بالأستاذ، أو الأستاذ الكبير، وهذا الوصف إن انطبق على البعض، لا ينطبق بحال على البعض الآخر، والأولى أن يحذف بالمرة. فلا يلزم إطلاق الأستاذية على شخص ليصبح أستاذاً بالفعل، والأساتذة الحقيقيون في غنى عن مثل هذه الأوصاف، فأعلامهم تدل عليهم. وهذه الأوصاف من المبالغات الشرفية التي كادوا يتحررون منها وبقينا متشبثين بها، ومهما كان الحال، فمن التواضع والذوق السليم، ألا تطلق أوصاف الأستاذية على الهيئة القائمة بتحرير المجلة.

أخي،

أرجو مرة أخرى أن تحمل ملاحظاتي، محمل الوفاء والإخلاص، وأتمنى لك، ولمشروعك الجديد كل توفيق وتقدم، وعلى أمل اللقاء قريباً.

المخلص : قاسم الزهيري

«15»

بسم الله الرحمن الرحيم.

أخي الأعز أبا بكر القادري، تحيات زكية، مع أحر الأشواق.

تلقيت في هذه اللحظة خطابك الرقيق، ففرحت به كثيرا، خصوصا لما علمت نيتك في المجيء عندنا، وأتمنى أن تبقى على هذه النية. وقد زارنا مؤخرا الأخ عبد الكريم حجي، فحملته رسالة شفوية إليك، ولعله يستطيع أن يحكي لك عن جو بلغراد. ولا حاجة بي إلى التأكيد بأني سأكون سعيدا باستقبالك وكذلك زوجتي. وسنبقى صحبة الأبناء، إلى متم شهر يوليو. وبعد ذلك سنتفرق كأولاد الحجل : أمين ورشيد، سيذهبان لانجلترا، ومليكة ستذهب إلى دمشق، ومريم سترافقنا في رحلة سياحية عبر شواطئ يوغوسلافيا، واليونان. ثم نجتمع كلنا في المغرب إن شاء الله، في شهر شتمبر، حيث نقضي خمسة عشر يوما إلى متم الإجازة.

فإذا صح عزمك على القدوم، فاكتب لي، كي أرتب لك برنامجا يجمع بين الفائدة والمتعة. فبالرغم عن حرارة الطقس في بلغراد ذاتها، من الممكن أن تزور عدة أقطار مجاورة، لا تخلو من فائدة سياحية.

في هذا اليوم، تلقيت برقية من أخينا عبد السلام الحراقي، الذي سألني نفس سؤالك، وربما يقدم عندنا في أوائل الشهر القادم، هو وزوجته.

آسف كثيرا لعدم إجابتي عن رسالتك الأخيرة، وإن كانت أتت ردا على خطاب بعثت به إليك قبل. والحقيقة أنني كنت في كل مرة أهتم بالكتابة، فتزدحم الأفكار في مخيلتي، حتى لا أعود أدري ماذا أقدم منها وماذا أؤخر. وغني عن الذكر، أنها أفكار تتعلق كلها بمجريات الأحوال في الداخل. وقد تسابقت الأحداث بسرعة فائقة، أثناء غيبتي، وبصورة لا أعتقدها وافية بالمصلحة. وسبق لي أن عبرت لك عن قلقي الشديد. وكل يوم يمر أزداد قلقا. إن كثيرا من الملابسات تعوزني، لإصدار حكم فيما يجري بالداخل. لكن القرائن وما يكتب في الصحافة التي تصلني، يدل على أن جوا من الحماقة والجنون، قد استولى على بلادنا، وإن مسؤولية إخواننا جسيمة. لقد بدأنا الحياة النيابية بداية قبيحة. وسيكون لذلك أثره في المصير الذي ينتظر البلاد. أقبح ما في الأمر، أننا، وأعني الجميع، لا نعالج مشاكلنا السياسية وغيرها على أساس تحليل معقول للظروف والواقع، بل نطلق العنان للعواطف والغرائز، وننقاد لها، أعتقد أننا ما لم نغير أسلوبنا في مواجهة الموقف السياسي، سنؤدي بأنفسنا وبالبلاد إلى مصير مظلم.

هذه خلاصة تأملي فيما يجري بالداخل، ولا أخفيك أني متشائم، وأرجو أن أكون مخطئا.

سيكون لقاؤنا إن شاء الله، فرصة لتبادل الرأي، إني في انتظار جوابك العاجل. قبل عني يد والدتك، وسلم على مولاي عبد الله، وسيدي محمد، وأبنائهما، وتحياتي إلى رفيقتك، مع قبلاتي للأبناء والبنات، وسلامي لكافة الأصدقاء، ودمتم لأخيكم.

قاسم الزهيري

بلغراد في 23 يونيه 1963.

«16»

بيكين في 8 فبراير 1973.

الحمد لله.

أخي أبا بكر.

تحيات مودة وإخلاص.

منذ شهر، وصلني جوابك، ومن ذلك الوقت وهو موضوع على مكتبي، يلح علي في العودة للكتابة لك، وأعلل النفس كل يوم، بالانجاز، فتصرفني مشاغل المهنة، وشؤون أخرى؛ إلى أن سنحت الفرصة هذا اليوم.

لا أود الحديث في ما مضى، فليس هذا وقت الرجوع إلى الوراء، وقد تتاح مناسبة للمصارحة، وإماطة الستار عن أسباب ما جرى، وكشف هوية المتسببين، والمشائين بالنميمة، الذين مُذ كانوا، وهم يعيشون في الماء العكر.. إنما أود اليوم أن أحدثك في موضوع، يستأثر بكل اهتمامي، ويقض مضجعي، في هذا البلد السحيق.

قبل كل شيء، أقدم لك وللأسرة الكريمة أجمل التهاني، وأغلى المتمنيات، بمناسبة حلول العام الجديد، راجياً لكم جميعاً موفور العافية والهناء، وأهنئكم كذلك بالمولودة الجديدة حفظها الله، آملاً أن تنوب عني في تقديم التهاني لمحل ابنتنا سعاد، والسلام لجميع أفراد العائلة بدون استثناء.

أشكرك على متمنياتك لي في عملي بهذه البلاد، والواقع أنني جد منشرح بوجودي في الصين، في هذه الظروف، حيث أشاهد تطور شعب كان إلى زمن قريب في عداد الشعوب المستعبدة؛ ويسير الآن بخطى شاسعة نحو التقدم، بل ويسهم بفعالية في الشؤون العالمية، إنه بجده وكده واتحاد كلمته، وحسن تدبير ساسته، ليعطي المثال للشعوب التي هي في مثل وضعه.

إن الموضوع الذي أود التحدث إليك فيه، هو وضع البلاد، وما يصلني من أخبار، عما تتخبط فيه، وما يكتبه لي بعض الأحبة والأصدقاء، وما تنشره الصحف من أخبار مزعجة، ومجرد الاطلاع على المواقف التي تتخذها الأطراف المعنية، يشعر بصعوبة الوصول إلى حل، وبدون أن أوجه المسؤولية على أحد الأطراف دون الأخرى، أتساءل هل بقي في بلادنا من يزنون الأمور بميزان الحكمة، وتدبر العواقب، خاصة بعد الكوارث التي تعرضت إليها، والتي تنذر بمستقبل وخيم، والسياسة أخذ وعطاء، واتفاق على قاسم مشترك، لجلب المنافع ودفع الشرور المتوقعة، ومن يريد الاستئثار بكل شيء، يفقد كل شيء، وبالتالي تصبح المصلحة العامة في ضياع، ثم بدون نقد ذاتي لأنفسنا، وبتحميل الخطيئة.. كل الخطيئة لغيرنا، لا يمكن أن نصل إلى اتفاق على ذلك القاسم المشترك؛ فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أو كما قال المسيح : «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر !».

إن الوضع في بلادنا، والمواقف المتخذة منه، تذكرني بحديث جرى بين أحدهم وطبيب؛ سئل الطبيب : لنفرض أنك

دعيت بصورة طارئة لمعالجة مريض يشكو من ذبحة قلبية وكسر في الساق، بأية من الحالتين تبدأ ؟ فأجاب الطبيب على الفور : أبدأ بالحالة الخطرة، فالكسر يوجع، إنما لا يميت، وعندما يستأنف القلب عمله بانتظام، أعود إلى معالجة الكسر.

هناك فارق مهم بين ما نحن فيه، وحالة المريض، وهو أننا لم نعالج لا الذبحة القلبية، ولا الكسر، وسلوكنا أشبه بالقول المأثور: عليَّ وعلى أعدائي ! ولا إخالك إلا توافقني على أن هذا السلوك، لا يمت إلى السياسة بأدنى صلة، وتصرفنا أشبه ما يكون بتصرف من يبحث عن حتفه بظلفه، فهناك قوى أخرى، تستعد وتتربص الدوائر، لا تفرق بين هذا الطرف أو ذاك، ولا تنتظر إلا الفرصة للانقضاض على الجميع، بدون شفقة ولا رحمة، وأعجب ما في الأمر، أنها لا تخفي حتى نواياها، والتاريخ مليء بالعبر، فهل لا نعي درس من سبقنا من الأمم إلى ما نحن فيه، ثم تطورها إلى ما هو أسوأ ؟ أفلا يكفي أن نتدبر حالة الشرق العربي ؟ أنكون كالفراشة تحوم حول اللهب.. مستأنسة بالنور هاوية للدفء فتقع فيه دون شعور ؟!

صدقني، لقد خبرت بعض الشيء، تطور كثير من الشعوب في الثلاثينات الأخيرة، ممّن كانت حالها أشبه بحالة بلادنا فتطورت إلى أوضاع لا تحسد عليها.. وتصفيات.. وتبدلات في المقومات والأسس، فتغير المجتمع غير المجتمع، وتبدلت الوجوه غير الوجوه؛ بل حتى الماضي أصبح مداساً ممتهنا.

إنه لمن المؤلم أن تفضي الحال في بلادنا، إلى ما آلت إليه في تلك البلاد، ألا يوجد من بين صفوف العاملين، من يزن الموقف بميزان الحكمة، والمصلحة، لا بميزان العواطف الجامحة ؟ فالعواطف ـ مهما تكن ـ غير صالحة لتقييم المواقف السياسية.

أخي،

هذه خواطر عنت لي في هذه البلاد التي لا تعتمد في سياستها على العواطف.. فأعداء الأمس، أصبحوا أصدقاء اليوم، بالرغم عن الفروق الايديولوجية، واختلاف الأنظمة، وتعارض المصالح؛ ولا تبني سياستها إلا على مصلحتها الآجلة والعاجلة، وقد أردت أن أبثك هذه الخواطر، بقلب ملوءه الأسى والحزن، فلعل الله أن يلهمنا الصواب.

سلامي، وسلام زوجتي، لك وللأهل، ودمتم في حفظ الله ورعايته.

أخوك : قاسم الزهيري

«17»

بكين في 6 يونيو 1978.

الحمد لله

أخي أبا بكر.

تحيات وأشواقاً قلبية.

حملت إلينا الأخت فاطمة حصار، أخباركم، وأخبار الوطن، والأحبة، والأصدقاء، واستأنسنا بها كثيراً، وللأسف كان مقامها بيننا قصيراً، وكانت في أغلب الأحيان منهمكة في الزيارات التي نظمها الصينيون، لبعض المنجزات الاجتماعية، ومع ذلك أمكننا أن نعيش بفضلها في جو البلد، ونتدارك بعض ما فاتنا من أخباره، فهذه المنطقة منسدة، لا يصلها إلا النادر مما يجري في بقية العالم، وخاصة في قطرنا الذي لا يكاد يذكر هنا.

لقد تألمت وزوجتي، غاية الألم، مما حملت إلينا الأخت فاطمة، عن صحة سلمى الغالية، وإننا نشاطرك وزوجك هذا الامتحان الذي يمتحن الله به عباده الصادقين؛ فنحن نعز سلمى وكافة إخوتها وأخواتها، مثل أبنائنا، لا فرق، ونرجو لها الشفاء العاجل، ولتستلهم، لالة زينب، من جلدك واحتمالك، ما يعينها علي الصبر، كما نتمنى أن توافينا بما جد في صحتها، راجين أن تكون العاقبة محمودة.

سلامنا لجميع الأهل، وفي مقدمتهم محل ابننا خالد، والأصدقاء كافة ودمتم في حفظ وعافية.

قاسم الزهيري

«18»

الحمد لله.

بكين في 30 شتمبر 1974.

الأخ العزيز سيدي أبو بكر القادري حفظك الله.

تحية كريمة، مع أحر الأشواق.

في هذا اليوم فقط، اطلعت على بعض أخبار المؤتمر التاسع لحزب الاستقلال، من خلال الصحف القليلة التي تصلنا، وخاصة «ماروك سوار»، وهكذا علمت بالموقف الذي اتخذه المؤتمر، من قضية الصحراء المغتصبة، وبالبرقية التي وجهها لجلالة الملك بهذه المناسبة.

فلا يسعني إلا أن أهنئ المؤتمر بهذا الموقف، وبتأكيد إخلاصه وولائه لجلالة الملك، ومما أعقب ذلك من توجه أمينه العام الجديد الأستاذ محمد بوستة إلى نيويورك، للمشاركة في مناقشة قضية الصحراء، في منظمة الأمم المتحدة، وقبول هذا الأخير منصب مستشار لجلالة الملك، كل هذه القرائن تشعر بقرب حلول عهد جديد من التعاون بين القوى السياسية الموجودة في البلاد، ونهاية حقبة طويلة من الجفاء، والرجوع إلى سياسة الواقعية.

مما يؤسف له حصول هذا الجفاء، واستمراره نحو اثني عشرة سنة، مما ضيع على القوى الواعية الخيرة في البلاد، كثيراً

من فرص العمل النافع، وقصر نشاطها على المعارضة، بدون أن يكون لذلك تأثير فعال في سير الأحداث، وأضاع كذلك على البلاد كثيراً من الفرص، في الميدانين الداخلي والخارجي.

لطالما حدَّثتك، وحدثت الإخوان في الموضوع، خاصة بعد الخطاب الذي سبق أن وجهته لزعيمنا المرحوم الأستاذ علال الفاسي سنة 1962، عقب استقالة ممثلي الحزب من الحكومة، ومازلت أذكر الأوقات الطويلة التي قضيناها في مناقشة الموضوع، حين زرتني بيوغسلافيا لبضعة أسابيع، كنت أتفق مع الإخوان في تحليل بعض مظاهر سياسة الحكم، لكنني كنت دائماً مقتنعاً بأن جلب المصالح، ودرء المفاسد - ولو جزئياً - لا يتيسر إلا بالمشاركة في الحكم، والعمل مع العرش، على نحو ما تم قبل الاستقلال، والخطاب الذي كتبته لك منذ سنة ونصف وأجبتني عنه يسير في هذا الاتجاه.

الظاهر أن تطوراً حصل في الأفكار والاتجاه، عقب وفاة الزعيم الأستاذ علال الفاسي رحمه الله، الذي كان ميله معروفاً لابقاء الاتصال، وكذلك بسبب وضع قضية الصحراء المغربية في وضعها الصحيح.

مهما يكن، فإن الرجوع إلى سياسة واقعية، تأخذ بعين الاعتبار القوى الموجودة في البلاد، وتقييما صحيحاً للظروف، والمعطيات الموضوعية الموجودة محلياً، ثم اتخاذ خطة إيجابية على أساسها، دون التأثر بأي عامل ذاتي : كل هذا من شأنه أن يعين على علاج الحالة - إن لم يكن كليا فجزئياً - داخلا وخارجاً.

المهم أن تتم الاستفادة من الدروس الماضية، وأن تكون التجربة التي تبدو الآن ملامحها في الأفق، تجربة حصيفة ذكية، لتأتي ثمارها في صالح البلاد، والأمل أن يستمر السير على النهج الذي خططت معالمه، بتعاون ما بين الحكم وبعض القوى الوطنية الواعية في البلاد، والذي زاد في المؤتمر التاسع لحزب الاستقلال.

أعان الله جميع العاملين.

سلامي لحرمكم، وجميع الأنجال والأصدقاء، ودمت في حفظ الله ورعايته.

أخوك : قاسم الزهيري

«19»

الأخ الأعز الأكرم.

تحيات وأشواقاً حارة.

وصلتني رسالتك من يومين فقط ومعها الخطاب الموجه إلي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي من الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني المتعلقة بهدم الصهاينة لزاوية أبي مدين الغوث، وهو الآن تحت الدرس؛ وستعتني به الأمانة العامة مزيد الاعتناء.

وبالمناسبة أخبرك بأنني حين توجهت إلى الأمم المتحدة في شهر أكتوبر الماضي بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والثلاثين طلبت اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية في قضية فلسطين والشرق الأدنى، وقد اجتمع أزيد من ثلاثين وزيراً وخرجوا بوثيقة أوجه لك نسخة منها وزعت على أعضاء هيئة الأمم كوثيقة رسمية.

ونحن الآن جادون في بحث الموضوع الذي أشرت إليه وسنجمع لجنة القدس في وقت لاحق، وسوف يُشارك فيها علاوة على ممثلي منظمة التحرير ممثلو اثنتي عشرة دولة إسلامية انتخبهم المؤتمر الإسلامي، كما ستجمع لجنة صندوق القدس قريباً.

وننوي بحول الله القيام بتحرك مكثف قريباً في قضيتي فلسطين والشرق الأدنى.

هذا، وقد كنت في الفلبين حيث تناولت قضية إخواننا هناك بعدما أخلف الرئيس ماركوس وعوده لهم، وقد عادوا إلى الكفاح مرة أخرى، وهم يكبدون الحكومة هناك خسائر فادحة، ونحن نتابع القضية بغاية الاهتمام إلى أن تنتهي بالنصر المبين بحول الله.

علمت بمزيد الأسى نعي أخينا المخلص الفقيه محمد العزوزي، واندهشت لهذا النبأ لأنني لم أكن أعلم شيئاً عن مرضه، ومما زاد في لوعتي أنني كنت في المغرب ـ بحسب رسالتك ـ في المغرب يوم الوفاة، ولو علمت الخبر ما كنت أتردد لتشييعه رحمه الله إلى جوار ربه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان مقامي في الشهر الماضي بالمغرب من القصر والسرعة بحيث لم أستطع أن أزور الأصدقاء والأحبة، فأعتذر، وقد علمت أنك لم تلب طلب رابطة العالم الإسلامي.

أرجو أن تتيسر الفرصة للاجتماع بك في رحاب الله سلامي للأهل والأبناء ودمت لأخيك.

«20»

الحمد لله.

جنيف 28 رجب 1402.
موافق 1982/5/21.

أخي العزيز الأستاذ أبو بكر.

تحية مودة وإخاء دائمين.

وبعد، استلمت منذ خمسة أيام خطابك الكريم، وتأثرت بما تضمنه من مشاعر رقيقة نحوي، ونحو حليمة، فأشكرك جزيل الشكر. والواقع أننا أنسنا بكم، وبالأنجال أصلحهم الله، في دار غربتنا هذه، حيث نعيش حياة رتيبة منقطعين عن أخبار الأهل والأحباب، وقلما يطرق بابنا طارق، أو يأتينا بريد من الداخل، وقد أسفنا لقصر مدة إقامتكم، فنرجو أن تتكرر وتطول في المستقبل.

إنني أعلم وفرة أشغالك، في وقت أحوج ما تكون فيه إلى الدعة والراحة، بعد طول جهد وعناء، في سبيل المصلحة العامة، ولقد قدرت توسطك في قضيتي، فأشكرك وأشكر الأخ مَحمد بوستة، على عواطفه، راجياً أن يجد الفرصة المواتية، وأن أتلقى خبراً منه في القريب، وإني لمطمئن إلى حسن متابعتك.

رحم الله أخانا المجاهد الحاج عمر، مثال الوفاء، والإيثار والعمل، ونكران الذات، كان علماً وقمة شامخة؛ وفضله لا

ينكر، ليتنا نتوفق لاستيفائه حقه، وحق أمثاله، من المؤمنين المكافحين، الذين أسهموا بتضحياتهم، في استرجاع حرية بلادنا وشرفها، والذين.. قلما يعرفهم الشباب. إن ذاكرة الشعوب ضعيفة، وكثيراً ما يملأها ذوو الأغراض بالإفك والبهتان، مستغلين الفراغ والاهمال.

لقد وجهت برقية تعزية لعائلة المرحوم، وكنت أفكر بالأخص في أخينا بوشعيب، وزوجته شقيقة أخينا الحاج عمر، وبحثت عن عنوانهما، فلم أجده عندي لأبعث لهما بالتعزية، فأرجوك أن تنوب عني إن سنحت لك الفرصة.

تحياتي لحرمك المصون، ولجميع الأنجال والعائلة ودمتم سالمين.

أخوك : قاسم الزهيري

«21»

جنيف في 6 رمضان 1401.
الموافق 1981/7/7.

أخي العزيز الأستاذ أبو بكر القادري، حفظك الله ورعاك.

وبعد، أنتهز فرصة حلول شهر رمضان المعظم، لأوجه لك خالص التهاني والمتمنيات، راجياً لك وللأسرة الكريمة، موفور العافية والسعادة والهناء، وكذلك لجميع الأهل والأصدقاء ومن يسأل عنا، أعاد الله أمثال أمثاله عليكم جميعا، وأنتم متمتعون بتمام الصحة.

قليلاً ما نسمع أخبار الإخوان والرفاق، فنتمنى أن يكون الجميع بخير، أما نحن فإننا في نعمة شاملة، ولله الحمد والشكر، لولا الغربة، لكن من حين لآخر، يرد بعض الأحبة، ونتوقع أن يزورنا الأهل والأصدقاء، بمناسبة حلول الصيف، ولاشك أنك ولالة زينب، ستكونان من الأوائل، فنحن في أحر الشوق.

فتحت لك تليفون صباح هذا اليوم، بعد ما اتصل بي الشيخ صفوت، ورجاني أن أكلمك، فقد حاول من جهته عبثاً، والمقصود ـ كما أخبرت بذلك مولاي أحمد الإدريسي ـ أن الرابطة تطلب أحد خريجي المدرسة الحسنية، أو جامعة القرويين، أن يتوجه للبرازيل، وتتعاقد معه على سنة قابلة للتجديد، كي يقوم بالتدريس والدعوة، والشرط أن يكون

عمره لا يتعدى الخمسين ويكون متقناً للاسبانية، أو البرتغالية، أما الراتب المقطوع (أي بلا زيادة) فهو 1.500 دولار شهرياً.

والشيخ صفوت، يترجاك أن تتصل به حين يقع اختيارك على الأستاذ المطلوب، كما يأمل أن يكون جاهزاً للسفر خلال رمضان، أو بعده بقليل، لأن المكان الذي سيشغله فارغ الآن، بعدما تركه أحد الأساتذة المصريين، وسبق أن شغله أكثر من عشر سنوات.

مع الالحاح على الاتصال بالشيخ صفوت، في أقرب فرصة ممكنة، أكرر لك وللعائلة عاطر التحية ودمتم في حفظ الله.

خص بالسلام أخي محمد والفقيه التطواني.

قاسم الزهيري

«22»

الحمد لله.

الرباط في 26 ذي القعدة 1413.
الموافق 1993/5/18.

أخي العزيز الأستاذ أبو بكر القادري.

تحية إخلاص ووفاء وتقدير.

وبعد، طلعت علينا اليوم جريدة «العلم» بخبر، مفاده أن هذه الصحيفة، ستنظم يوم السبت المقبل، ندوة حول «التاريخ للحركة الوطنية» تكريماً لك، بمناسبة صدور الجزء الأول من كتابك الجديد، «مذكراتي في الحركة الوطنية»، ثم وصلتني في نفس هذا اليوم، دعوة من الأخ عبد الكريم غلاب، يدعوني فيها لحضور الندوة.

وهكذا اطلعت ودعيت، كبقية قراء «العلم»، ومطلق المدعوين.

ولا تسل عن حزني، لا لتلقي الخبر بهذه الصورة فحسب، بل وكذلك وبالأخص لعدم اهتمام المنظمين بدعوتي للمشاركة الأدبية في الندوة، فإذا كان أحد ممن لايزالون على قيد الحياة ممن عاشروك، وأخلصوا لك الود، منذ أزيد من نصف قرن، فأنا هو، وقد رجعت للأخ عبد الكريم، فأكّد لي أنه لم يهتم بتنظيم الندوة،

ولما خاطبت الأخ عبد الجبار السحيمي اعترف بالخطأ الذي ارتكبه أحد المساهمين في التنظيم، ورغم أني ثقت بما قالا، و لم أعد أواخذهما كما خلت أول مرة، فإنني مازلت أعتقد أن هناك عملاً مدبراً من لدن بعض المنظمين، يقصد منه التعتيم، فلا يعقل أن أحداً من هؤلاء، يجهل صلتي الحميمة بك، وقد اطلعت على لائحة المشاركين، وأغلبهم ـ رغم مقامهم الفكري ـ قريبو العهد بك، إن لم تكن لهم سوى صلة ضعيفة بك.

وإنني إذ أجدد حزني لما جرى، أدعو لك بهذه المناسبة بمزيد الصحة ومديد العمر لتواصل البذل والعطاء.

أخوك الوفي قاسم الزهيري

«23»

كلمة الأستاذ قاسم الزهيري في تقديم اليوم الدراسي لتكريم الأستاذ أبي بكر القادري : (الكتاب مشكاة تنكشف من خلالها خفايا الحركة الوطنية)

سيداتي، سادتي.

ندوة تعقد في موضوع تاريخي، تقتضي العرض والتحليل والاستنتاج؛ عرض أحداث الماضي، مهما كانت تراكماتها، إخضاع تلك الأحداث لمجهر التحليل، استخلاص نتائجها عبر التطور الحضاري، كما تقتضي رجع صدى الذكريات الفردية والجماعية التي تشكل في مجموعها ذاكرة الشعوب.

إنها المهمة التي ستضطلع بها ندوتنا هذه التي نظمتها جريدة «العلم» تحت عنوان «ندوة التاريخ للحركة الوطنية» بمناسبة صدور الجزء الأول من مذكرات المؤرخ المجاهد، والأستاذ الرائد، أبي بكر القادري، وتطوع جماعة من أبرز المؤرخين والمفكرين، لالقاء أضواء كاشفة على عمل تاريخي، يعد في حد ذاته، حدثاً بارزاً وإغنائه بآرائهم.

وإذا كان المؤلف يؤكد في المقدمة والخاتمة، أن كتابه «ليس تاريخاً للحركة الوطنية المغربية ككل، ولكنه تسجيل لبعض الأحداث الهامة التي عشتها، أو شاركت فيها من قريب أو من بعيد»، على حد قوله، فإن هذا الكتاب جاء شاهداً على

فترة من أبرز فترات الحركة الوطنية، ومن موقع يعتبر أحد أهم مواقعها، وعلى يد رجل واكبها منذ البداية، ناهيكم بتناول الكتاب السنوات العشر الأولى، لميلاد الحركة الوطنية وما تمخضت عنها من أحداث جسام، شارك فيها المؤلف عملاً وتضحية، ثم تنظيراً واسهاماً في صياغة القرار، وأخيراً ريادةً وقيادة، لا من مسقط رأسه سلا فقط، إحدى منارات الحركة الوطنية، بل من العدوتين، من حيث كان ورفاقه يمُدون الجسور، ويشرفون على النضال، ويوجهون الدعوة الوطنية شرقاً وغرباً، في الداخل والخارج.

فلا عجب أن يأتي كتابه هذا مشكاة يكتشف من خلالها الكثير من خفايا الحركة الوطنية، لا في موقع القيادة فحسب، بل على امتداد الآفاق، التي كانت تتسع لها رؤية صاحبه : خفايا تبرز فيها شخصيات، لعبت أدواراً هامة في الحقل الوطني، ووقائعٌ ونضالاتٌ لم يسبق لها أن تجلت بصورة كافية، أو أغفلها المؤرخون، ووثائق ومستندات لم يسبق أحد لنشرها، فكتابُ «مذكراتي في الحركة الوطنية» بهذا الاعتبار، سجل متمم لما تقدمه من الأعمال التي صدرت لحد الآن عن الحركة الوطنية، في جنوب بلادنا وشمالها، بسبب التقسيم الاستعماري، ومصحح لبعض ما وقع فيها من تحريف.

حِلْمَكم ألتمس بعض الثواني ـ سيداتي، سادتي ـ لا لأسبق الأساتذة الباحثين، أو لأستغل رئاسة هذه الجلسة، لأستدرك ما فوته علي المنظمون لهذه الندوة بحسن نية، لكن لأعلن في هذا الجمع الكريم، فضل أخي أبي بكر القادري عَليَّ شخصيا،

وعلى جيل من شباب هذه المدينة، تهذيباً، وتعليماً، ووطنية، ومثلاً يحتذى، فليست هذه أول مرة أعلن فيها فضله، وفضل أمثاله على الناشئة، ممن أدوا ولازالوا يؤدون، بعض ما يجب عليهم لهذه البلاد وشعبها، فلسنا في الواقع إلا امتداداً لمن سبقونا، وصنيعة تاريخنا وثقافتنا الخصوصية، وبيئتنا التي نتحرك فيها.

أقولها بدون مبالغة : لولا أبو بكر القادري، ونشاطه التربوي، والثقافي، والوطني، والإسلامي ،لما كان شباب سلا المعاصر، على ما هو عليه من الوعي والمسؤولية والتنور.

وبعد.. يسعدني أن أرأس الجلسة الصباحية، لهذه الندوة شاكراً اللجنة التحضيرية على ثقتها، راجياً حلم الأساتذة المشاركين، ومؤملا أن تأتي الندوة بالثمرة المرجوة على قدر الكتاب الذي طرحه مؤلفه للقراء، متفرداً بصياغته، لكن مشاركاً إياهم والباحثين في درسه وتحليله ونقده، شأنه شأن كل عمل ثقافي، وإبداعي، يعرض في المكتبات.

فعلى بركة الله نبدأ.

«24»

حمداً لله وصلاة وسلاماً على رسول الله.

صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، حفظكم الله ورعاكم.

جرت عادة والدكم المفدى، جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله أمره، أن ينتدب سموكم، لرئاسة هذا الاحتفال الفكري الممتاز، الذي أصبح ينعقد كل سنة، لتكريم أكبر المبدعين في المعرفة، والعلوم، والآداب، في عهده الزاهر، وفي انتداب سموكم لهذه المهمة، دليل على حدْب جلالته، ورعايته للثقافة، وحرسه الشديد على تكريم روادها، وألمع وجوهها.

وإنه ليسعدني ويشرفني ـ يا مولاي ـ أن أقدم علماً بارزاً من أعلام هذه البلاد، أنعم عليه جلالة والدكم المفدى، بجائزة الاستحقاق الكبرى لهذه السنة، وهو الأستاذ أبو بكر القادري.

وقد احترت كثيراً في أمر هذا التقديم، حين اختارني سيادة وزير الشؤون الثقافية، للقيام بهذه المهمة، ذلك أن الحديث عن المحتفى به، يقتضي وقتاً طويلا، وبسبب إسهاماته الكثيرة في شتى المجالات، المعرفية منها والوطنية والإسلامية من جهة، ولما يقتضيه الحال من الإيجاز، في مثل هذا المقام من جهة أخرى.

بدأ أبو بكر القادري نشاطه العلمي والوطني، وهو يافع بعدما تخرج عن كبار شيوخ العلم، من أمثال الداعية المصلح

السلفي، محمد بن العربي العلوي، رحمه الله، وكان منذ حداثته شابا نشأ في عبادة الله، ومن فئة السبعة الذين يرجون أن يظلهم الله، يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء في الأثر، فاتجه منذ البداية إلى تأسيس مدرسة «النهضة»، وما تبعها من نشاطات فكرية، وإسلامية، وتخرج منها الآلاف من شباب سلا، تهذيبا، وتعليماً، ووطنية، ومثلاً يحتذى ممن يستنمون اليوم أعلى المراتب، في القطاعين العام والخاص، أقولها بدون مبالغة : لولا أبو بكر القادري، ونشاطه التربوي، والثقافي، والوطني، والإسلامي، لَمَا كان شباب سلا المعاصر، على ما هو عليه من الوعي والمسؤولية والتنور.

في المجال الوطني يعد أبو بكر القادري من الرعيل الأول، باسهامه في تأسيس «كتلة العمل الوطني» و«الحزب الوطني» و«حزب الاستقلال»، واكب الكفاح الوطني، وشارك فيه عملاً وتضحية، حيث سجن ثلاث مرات، ونفي وعذب، ثم تنظيرا وإسهاماً في صياغة القرار، وأخيراً ريادة وقيادة، لا من مسقط رأسه سلا فقط، بل من عموم البلاد، حيث كان ورفاقه يمدون الجسور، ويشرفون على النضال، ويوجهون الدعوة شرقاً وغرباً في الداخل والخارج.

صاحب السمو الملكي الأمير الجليل.

كان أبو بكر القادري محل تقدير جدكم، بطل التحرير جلالة محمد الخامس، نور الله ضريحه، يستشيره فيمن كان يستشيرهم من القادة الوطنيين، وكان آخر لقاء بينهما مع اثنين

من الرفاق الوطنيين، ثلاثة أيام قبل أن يلتحق جلالته بالرفيق الأعلى، حيث استمر حديثهم أزيد من ساعة ونصف، عن قضايا البلاد ومستقبلها، ومن دلائل تقدير العاهل الراحل للشخص الذي نحتفي به اليوم، أنه اختياره له لعضوية المجلس الوطني الاستشاري، أول مؤسسة دستورية بعد الاستقلال.

وقد صار جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على سنن والده المنعم، فأحاط المحتفى به، بواسع عطفه، وجميل تقديره، حيث عينه عضواً في مجلس الدستور، وعضواً في مجلس الوصاية، لما اشتهر به من وفاء واخلاص وولاء، وما مكافأته اليوم بجائزة الاستحقاق الكبرى، بعد تعيينه في عضوية أكاديمية المغربية، إلا الدليل على سابغ عطف جلالته، وتقديره للأستاذ أبي بكر القادري.

تألق نجم المحتفى به في الحقل الإسلامي، حيث أصبح من الشخصيات المرموقة، بما قدمه ويقدمه من عطاء فكري سخي، أهله لأن يرأس الجمعية المغربية لمساندة كفاح فلسطين، وعضوية المكتب التنفيذي، لمؤتمر العالم الإسلامي، الذي أسسه المغفور له أمين الحسيني، وعضوية كثير من المنظمات الإسلامية، التي كان ولايزال له حضور ـ مكثف ـ فيها، بالقلم والخطاب، من جاكرتا، إلى طوكيو، والطائف، وقبرص، ونواكشوط، ونيويورك، وغيرها.

يعد أبو بكر القادري في طليعة الخطباء والكتاب السلفيين اللامعين، تقوم شاهدة على ذلك، اصداراته التي عمرت

عشرات السنين ومنها : جريدة «الرسالة» ومجلة «الإيمان» وأزيد من ثمانية كتب حول الإسلام، ومقالات مازالت تزخر بها أعمدة صحيفة «العلم»، بالإضافة إلى ثمانية كتب أخرى في شتى الأغراض، نجتزئ هنا بذكر «المغرب والقضية الفلسطينية من عهد صلاح الدين إلى الانتفاضة» وآخر ما صدر له وهو «مذكراتي في الحركة الوطنية» في هذا العام والذي كان حدثاً هامّاً تلقاه القراء والنقاد، بحسن الأحدوثة، وأثنوا على نزاهة صاحبه، في سرد الأحداث، والكشف عن الخفايا، وإبراز الشخصيات، التي قامت بأدوار هامة في الحقل الوطني، وتجلية وقائع، ونضالات، ووثائق، أغفلها المؤرخون، و لم يسبقه أحد لنشرها.

* * *

وبعد، فليست هذه الكلمة سوى لمحة خاطفة عن الأستاذ أبي بكر القادري، الذي عرفته منذ ستين سنة، تلميذاً ثم صديقاً، ورفيقاً في الكفاح، وفي السجون، والمعتقلات، وفي العمل الإسلامي، والله أسأل أن يمتعه بموفور العافية والهناء لمصلحة هذه البلاد.

والسلام على مقام سموكم ورحمة الله وبركاته.

«25»

الحمد لله.

أخي الأعز أبو بكر القادري حفظه الله.

تحية محبة وإعزاز.

وبعد، لم يتيسر اجتماعنا منذ مدة طويلة، حيث أصبت بمرض مؤلم ألزمني الفراش قرابة شهرين، عافاك الله، وما أزال أتحمل آثاره، حيث لا أتحرك إلا ببطء، ولا أخرج إلا قليلا، وقد ضيعت عشرة كيلو، أرجوك أن تدعو لي بالمعافاة، كما أدعو لك بدوام العافية والهناء.

وبعد، تجد طيه نسخة من خطاب وجهته لصديقي الدكتور أحمد التوفيق، أثير انتباهه إلى آفتين اجتماعيتين، وما أكثر المصائب التي حلت ببلادنا، طالباً منه من موقعه كوزير للأوقاف والشؤون الإسلامية، أن يبحث عن معالجتهما؛ في هذا الوقت الذي انتشر الفساد في ربوع بلادنا، وبمختلف الصور، ولا من ينهي عن المناكر حتى.. باللسان، أو القلب، وهو أضعف الإيمان، كل من في قلبه حبة خرذل من الإيمان، وحب هذا الوطن، يشعر بالعار للهوة الأخلاقية السحيقة التي انحدرت لها بلادنا بعد.. الاستقلال !

أوجه لك هذا الخطاب لأشاركك لوعتي من جهة، ولتنفر من جهتك ما يمكن عمله، لمعالجة أدوائنا من جهة أخرى.

دمت في حفظ ورعاية.

2003/5/5 **أخوك قاسم الزهيري**

«26»

الحمد لله.

الأخ العزيز الأستاذ أحمد التوفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.

تحية مودة ووفاء.

وبعد، شغلتكم مهامكم السامية، وشغلتني أعراض مرضية مضنية ـ عافاكم الله ـ عن الاتصال والتزاور كذي قبل، لكن المحبة والوفاء مستديمان، حيث أتتبع نشاطكم عن كثب في الوزارة، خاصة برامج الوعظ اليومية «في رحاب القرآن» و«بصائر الإسلام» و«في ظلال القرآن»، أرجو أن يتم النفع بها، وأتمنى لكم دوام التوفيق.

المقصود من هذا الخطاب استرعاء نظركم إلى ما اطلعت عليه في العدد الأخير من Maroc - Hebds international الذي صدر يوم 2 ماي الجاري من فضائح يندى لها الجبين، وتعتبر وصمة عار في مجتمعنا، ولا يتحرك ذوو الغيرة، أو من في حكمهم، كالعلماء لتغيير هذا الواقع المؤلم.

باختصار شديد جاء في الصفحة 30 من الجريدة المذكورة، مقال طويل، حول التحرش الجنسي، بمعاهد التعليم في المغرب، من ثانويات، ووزارة الداخلية، ووزارة السياحة، ووزارة الاتصال، وغيرها، فبتظافر جهود هذه

الدوائر وما يمكن أن يقوم به علماء الدين من توجيه، بطريقة عصرية مفيدة، يعالج هذا الفساد الذي ينخر اليوم جسم الأمة، بينما الناس إما غافلون، أو مهتمون بمشاكل جانبية، وقضايا هامشية.

والله أسأل أن يفتح بصائرنا لعلاج أدوائنا، وتدارك عيوبنا، وهو نعم الوكيل والمعين.

الرباط في 4 ماي 2003.

محبكم قاسم الزهيري

«27»

الرباط في 17 يوليو 1968.

الحمد لله.

حضرة الزعيم المفضال الأستاذ سيدي علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال.

تحية مودة وتقدير.

اطلعت في جريدتي «العلم» و«الرأي» يوم 12 يوليو على خبر مفاده أن اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال قررت إعفائي مؤقتاً من المجلس الوطني بسبب دخولي للحكومة.

وقد استغربت لهذا الاجراء المنفرد، الذي اتخذته اللجنة الموقرة، خصوصاً وأن المذاكرة كانت جارية بيني وبين بعض الإخوان الذين عينتهم لإيجاد تسوية، ـ باتفاق معي ـ لهذه القضية، وقد سبق أن طلبت أن أمثل أمام اللجنة التنفيذية، أو أي هيئة عليا للحزب، لأشرح وجهة نظري، قبل اتخاذ أي قرار.

ودون أن أتعرض إلى جوهر الموضوع، أود أن ألفت نظركم، إلى أن القرار الذي اتخذ في شأني، يتنافى مع القانون الداخلي للحزب، ومن ثم يصطبغ بصبغة جائرة.

وحيث أنني من المؤسسين لحزب الاستقلال، وممن ساهموا ببعض النشاط في صفوفه، وممن تقلبوا في هيأته العليا؛

وحيث ان المؤتمر العام للحزب، جدد انتخابي كعضو في المجلس الوطني؛ ولما يصطبغ به قرار اللجنة التنفيذية من صبغة جائرة، فلا يمكنني أن أقبله وأحتج عليه.

كما أود أن ألفت نظركم، إلى أنني أحتفظ بحقي الكامل في إثارة هذه القضية، أمام الهيآت العليا للحزب، لإعادة الحق إلى نصابه وانصافي.

وتقبلوا ـ سيادة الرئيس ـ عبارة تقديري ومشاعري الأخوية.

قاسم الزهيري

«28»

الرباط في 20 يوليه 1968م.

الحمد لله والصلاة على رسول الله.

أخي العزيز، وصديقي، الحميم الأستاذ قاسم الزهيري،

مودة وتحية وسلاما دائمين، وبعد فقد سلم لنا الأخ أحمد ابن اليمني، رسالتك المتعلقة بالبلاغ الذي أصدره الحزب، بمناسبة تعيينك، وتعيين الأخ محمد الفاسي، عضوين في الحكومة المغربية، وإني أعبر لك عن أسمى عواطف تقديري، لما عبرت عنه من تعلق وتفان في خدمة الحزب، ومباديه، ورغبة في مواصلة نشاطك داخل هيئاته، وذلك هو المظنون والمعتقد فيك، وقد عرضت رسالتك في الحين على إخوانك أعضاء اللجنة التنفيذية، المتعلقين بك، والمسألة في نظرنا جميعا، ليست مسألة قانونية، وإنما هي سياسية، وتنحصر في منطق بسيط، وهو عدم إمكان الجمع بين المسؤولية في المعارضة، والمسؤولية في الحكومة، وذلك هو جواب اللجنة في الموضوع.

وثق أيها الأخ، أن المصلحة العامة، هي التي فرضت علينا إيثار الحل السياسي، على الحل القانوني الذي أشرت إليه.

هذا ولست بحاجة إلى أن أؤكد لك باسمي، واسم إخوانك، تعلقنا بك، وحرصنا على أن تنجح في مهمتك، وأن نتعاون دائما على ما فيه خير الوطن والعروبة والسلام.

وتقبل أخي أصدق عواطفي الأخوية.

علال الفاسي

«29»

الرباط في 6 ذي القعدة 1410 / 31 - 5 - 90.

الحمد لله.

أخي الأعز الأستاذ أبو بكر القادري.

تحية وفاء وإخلاص.

وبعد، اطلعت كسائر قراء «العلم»، على الإعلان عن إقامة تأبين للأستاذ أحمد بلا فريج رحمه الله، يوم الأحد المقبل بالدار البيضاء، وقد استغربت غاية الاستغراب، ألا تدعوني اللجنة المكلفة ـ وأحسبها من حزب الاستقلال ـ من جملة من دعتهم، للمشاركة بالكتابة، وذلك لما هو معروف من وثيق علاقاتي بالمرحوم، وإخوتكم أعلم بما كان بيننا من تعاون في دائرة اللجنة التنفيذية للحزب، لما كنت رئيساً لتحرير «العلم»، وقبل ذلك لما كنت مديرا لـ«المغرب» كما أنك أعلم بما قمت به من خدمات، فضلاً عما تحملته من تضحيات، فإن كفاحي في دائرة الحزب الوطني وحزب الاستقلال، لمما أعتز به.

وإذا كانت الظروف قد تغيرت، فإن الرسائل التي تبادلتها مع الرئيس علال الفاسي رحمه الله والتي تجد نسختين منها طيه، تدل على أن أعمال المناضلين، لا تمحى بجرة قلم، لكن ما يحز في النفس، أن بعض الأدعياء من قدماء المتخلفين، والمتخاذلين، تفسح لهم المنابر، والصحف، لينشروا زيفهم، وكذبهم، والأنكى من ذلك يشاد بذكرهم.

أردت فقط لفت نظر أخوتك، مع فائق المحبة والتقدير.

قاسم الزهيري

«30»

الحمد لله.

الرباط في 10 يونيو 1958.

إخواني أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال.

تحية خالصة واحتراما.

وبعد، لا يخفى عنكم، جو التوتر الذي يسود العلاقات بين الحكومة، وبين هيآت وأشخاص، كانوا لحد الآن يعملون في صفوف الحزب، وتحملوا في عهد الحماية قسطهم من التضحية في سبيل تحرير البلاد. وكان متوقعا أن نبقى متضامنين أكثر مما مضى، بعد الحصول على الاستقلال، لمواجهة المشاكل العظيمة التي تتخبط فيها بلادنا، وبالأخص في الوقت الذي تقلد فيه حزب الاستقلال، تبعات الحكم بمفرده. لكن الحكومة الثالثة التي تضم طائفة من أبرز قادة الحزب، قوبلت لأول نشأتها بنفور من لدن بعض المنظمات الواعية في البلاد، وبدون حماس من لدن الجماهير الشعبية. ولا حاجة إلى سرد الأسباب التي أدت إلى ذلك النفور، وانعدام الحماس. فكل من تتبع أطوار الأزمة الأخيرة عن كثب، يعلمها.

وكنت شخصيا، أعلل النفس بوصول قادة الحزب إلى حل يحد العاصفة، وربط الاتصال من جديد بالاتحاد المغربي للشغل، وحركة المقاومة، وهاتين القوتين اللتين انبثقا عن

الحزب، وينتهي جل أفرادها إليه، وكذلك مع مولاي عبد الله إبراهيم، الذي يجمعنا وإياه كفاح طويل، وتضحيات مشتركة، غير أني لاحظت أن الحالة تسير من سيء إلى أسوأ، وأن النفور أوشك أن يصبح عداءا سافرا، والاستياء ينتشر في الأوساط التي نتصل بها من الشباب الواعي، والحيرة تسود الجماهير التي لا تدرك خفايا الانشقاق في صفوف الحزب.

وبدت بوادر الصراع، في شكل حملة صحفية وإضراب نظم بالرباط وسلا وناحيتها، يوم الخميس الماضي، فكان موجها بالذات ضد الحكومة، واصطبغ بصبغة سياسية، وما ذلك إلا إرهاصات لبرنامج شرع في تنفيذه، قد يجعلنا في مستقبل قريب في تطاحن، ويرغم الدوائر المسؤولة، إلى اتخاذ موقف من الحركات، التي تسهر على تطبيق ذلك البرنامج مما جعلني ـ شخصيا ـ أتسائل إلى أين نسير ؟

أرى أن الحالة تتطور بسرعة فائقة، وأخشى ما أخشاه، هو أن نصل إلى هذا الطور. وهذا ما يأخذ علي كل اهتمامي، ولا يطمئن معه ضميري.

وليس معنى هذا، أنني أتحيز إلى أساليب طائفة دون أخرى، فليس هنا مجال للحكم، وقد عشت كثيرا من الحوادث التي سبقت الخلاف الراهن، واستمعت أخيرا إلى بعض بما يأخذ هذا الجانب على الآخر، وحرصت مع ذلك أن أحتفظ بود الجميع، وأن أسعى قدر استطاعتي، لأكون واسطة خير، مدفوعا بغيرتي على الحركة، التي أنتمي إليها، وبما أعتقد فيه المصلحة العامة. وبالرغم من فشلي في المساعي الأولى، فلا أظن أن

جميع الإمكانيات قد استنفدت، وكل أملي في التوفيق، قد انقضى، وسأستمر بمجهود شخصي في هذا السبيل.

إن الأمل معقود عليكم، أيها الإخوان، لبحث كافة الوسائل الكفيلة برأب الانشقاق، الذي بدأ في صفوف حزب الاستقلال، وأخذ في الاتساع يوما بعد يوم، فيبتهج به بل يستفيد منه أعداء حركتنا، والأجانب الذين يترصدون لنا، وهل لمثلي أن يذكركم، بأن البرنامج الداخلي والخارجي، الذي حددت الحكومة أهدافه، لا يمكن الوصول إليه، مادامت الفرقة شائعة بيننا، والأداة الحكومية لا تستند على بعض القوات الواعية في البلاد، وعلى حماس الجماهير ؟ فأحرى إذا كانت هذه الجماهير، وتلك القوى مناوئة لنا، فدخلت معها في صدام.

إن الحالة خطيرة، توشك أن تأخذ أطوارا لا يمكن التكهن بها، ومن واجبنا أن نتدارك الأمر في الابتداء، إذا كرس قادة حزب الاستقلال كل اهتمامهم، ومجهودهم، لإيجاد حل للخلاف الراهن. فوفروا بذلك امتحانا قاسيا للحركة التي يعملون بإخلاص في دائرتها، ومحنة شديدة للبلاد التي يخدمونها.

وتقبلوا إخواني أصدق عواطف الإخلاص والوفاء.

قاسم الزهيري

«31»

.58/6/12

أخي الأعز عبد الله إبراهيم.

تحية زكية وأشواقا.

وبعد، لاشك أنك لاحظت شدة قلقي، من التوتر الذي يزداد يوما بعد يوم بين إخواننا في الحكومة من جهة، وبينك وبين الاتحاد المغربي للشغل وحركة المقاومة من جهة أخرى. ولا مجال هنا لتفصيل أسباب هذا الخلاف، ولا لتحديد المسؤوليات، فكل من تتبع الأزمة الحكومية الأخيرة يعرفها.

وكنا نأمل أن تسفر هذه الأزمة، عن أداة حكومية من حزب الاستقلال، تتمتع بثقة المنظمات الواعية في البلاد، وحماس الجماهير، لتحقق للمغرب الأهداف والرغبات الوطنية التي رسمها الحزب، وتلك الهيآت. وكان متوقعا أن نبقى متضامنين أكثر مما مضى، لمواجهة المشاكل العظيمة التي تتخبط فيها بلادنا، فحصل نقيض ما كنا نأمله. إذ شاعت الفرقة في صفوفنا، وانقسم المكافحون الذين تحملوا جميعا تضحيات جسيمة في سبيل استقلال بلادهم.

وكنت ـ شخصيا ـ أعلل النفس بإمكان هدوء العاصفة، وإعادة ربط الاتصال بين مختلف القوى المنظمة في البلاد. لكني لاحظت أن الحالة تسير من سيئ إلى أسوأ، وأن النفور أوشك أن يصبح عداءا سافرا، والارتباك ينتشر يوما فيوما بين الشباب

الواعي، والحيرة تسود الجماهير التي لا تدرك خفايا الانشقاق الحاصل في صفوف العاملين.

وأخشى ما نخشاه من أن تتطور الحالة ـ وقد بدت بوادر ذلك ـ إلى صراع وتطاحن، يجعلان العناصر الحية في هذه البلاد وجها لوجه، في الوقت الذي توجد فيه الحركات التحررية، هدفا لسهام أعداء حرية المغرب واستقلاله من الداخل والخارج، وفي ظروف هي من أدق وأحرج الظروف في تاريخنا القومي، وتقتضي منا التغلب على نزعاتنا، والوقوف سدا منيعا ضد المؤامرات.

وأعتقد أن الخلاف الراهن بين القوى القومية في البلاد، مهما كانت درجته وأسبابه، لا ينبغي أن ينسينا ما تستهدف إليه البلاد من خطر عظيم، قد لا يستفيد منه إلا أعداء الحركة التحررية، والأجانب الذين يتربصون بنا الدوائر.

أخي إن جميع الإمكانيات قد استنفدت، لإيجاد حل للخلاف، وإن كل أمل في التوفيق قد انقضى.

إن الأمل معقود عليك وعلى جميع الإخوان الواعين لمسؤولياتهم، لبحث كافة الوسائل الكفيلة برأب الانشقاق الذي بدأ في صفوف العاملين، وأخذ من الاتساع يوما بعد يوم، لصالح الخصوم والأعداء. فمن واجبنا أن نتدارك الأمر في الابتداء، لنتوفر على الحركة التي ينتمي إليها جميع العاملين، امتحانا قاسيا وعلى البلاد التي نخدمها محنة شديدة.

وإليك في الختام أصدق عواطف الوفاء والإخلاص من أخيك.

التوقيع
قاسم الزهيري

«32»

ذكرى وفاة المرحوم
أحمد بن اليمني

حوْلٌ كَامِلٌ مر على رحيل أخينا المرحوم الأستاذ أحمد بن اليمني، نجتمع اليوم في هذا الحفل الديني، المعطر بآيات مباركات من الذكر الحكيم، وبأمداح نبوية كريمة، لإحياء ذكرى فقيدنا الغالي، بقلوب مليئة بالوفاء والتقدير، فمن شيم الإخوة الصادقين، الإعراب عن مشاعر العرفان، والوفاء، لمن سبقوهم إلى دار البقاء، وانتهاز المناسبات المتاحة، للإشادة بمكارمهم عبرة وذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

تقترن هذه الذكرى اليوم، بحدث جلل، حل بساحة رفيق عزيز، لا سبيل إلى إغفاله في هذا المجلس العطر، إننا نجتمع غداة فقد امرأة صالحة مؤمنة، هي عقيلة أخينا المجاهد أبي بكر القادري، تغمدها الله برحمته الواسعة، وأثابها على ما بذلت، وما عانت، من آلام ممضة، تحملتها بصبر وجلد، منقطعي النظير، إلى أن أسلمت الروح إلى بارئها، نجتمع اليوم وقلوبنا ملتاعة، لفقد هذه السيدة الفاضلة التي قضت حياتها في مساندة زوجها، طوال كفاحه المرير، شادة أزره خلال تضحياته العديدة، ومساعدة إياه على توفير التربية المثلى، والتعليم الصالح، لأبنائهما وبناتهما حفظهم الله ورعاهم.

(*) كلمة قيلت في ضريح عبد الله بن حسون بسلا.

إن أفكارنا تتجه أول ما تتجه في هذا اليوم الذي نُحيي فيه ذكرى فقيدنا الأستاذ أحمد بن اليمني، إلى قدوتنا جميعاً في النضال، الأستاذ أبي بكر القادري، للامتحان العسير الذي اختبره به المقدر، برحيل شريكة حياته، بعد مضي خمسة عقود ونصف، كان هو خلالها الزوج البار، كانت الراحلة يرحمها الله الزوجة المثلى، إننا لندرك فداحة الفاجعة، ونستشعر عظيم الخطب، لكننا نعرف قوة يقين أخينا أبي بكر، وشدة إيمانه بالله العلي القدير، وحسن تحمله للملمات، مهما عظمت، وإننا إذ نشاطره مشاعره من صميم أفئدتنا، وما يعانيه، ندعو الله أن يخفف عنه وعن أهله جميعاً، ألم الفراق، ويلهمهم جميل الصبر والعزاء.

أيها الإخوة.

نعود إلى الإشادة بفضائل أخينا المرحوم أحمد بن اليمني، لقد سبق أن ذَكَرنا بمناسبة الحفلات التأبينية التي أقيمت له، والشهادات التي طلبتها منا بعض الإذاعات الجهوية، بمكارم هذا المناضل، الذي وقف حياته على خدمة بلاده، مضحياً في سبيل استرجاع سيادتها من جهة، وصارفاً كل مؤهلاته المعرفية والفكرية، لإفادة جيل من الشباب من جهة ثانية، وباذلاً كل ما كان يفضل من طاقته وراحته، للعناية بالشؤون الاجتماعية لمسقط رأسه، بوجه خاص، ولوطنه بصورة عامة من جهة ثالثة.

وهذا المقام ليس مقام تعداد أعماله الكثيرة، التي تستحيل عن الحصر، بقدر ما هو مجال للترحم عليه، والإشارة إليها بغاية

الإيجاز، إذ لا نستطيع في عجالة كهذه، استيفاء مكارم المرحوم أحمد بن اليمني وأعماله في ميداني التعليم والوطنية، وهما في نظرنا أهم المجالات التي خاضها، وكرس لهما حياته إلى آخر رمق، و لم يحد عنهما قيد شبر إلى أن لقي الله.

منذ حدد أخونا المرحوم أحمد بن اليمني مساره بعد نعومة أظفاره، وتخرجه في سلك التعليم، مزج بين التدريس والعمل الوطني، وتدرج في كلا المجالين، إلى أن بلغ الذروة فيها معاً.

كان شغوفاً بالتعليم، لا يتصور الحياة في عزلة عنه، فتدرج من معلم في الابتدائي، والإعدادي، إلى أستاذ في الثانوي، ثم مفتش فيه، ثم عضو في الدواوين الوزارية، إلى كاتب عام في التعليم الثانوي، وأصبح بعد ذلك مستشاراً للتعليم في الوزارة الأولى، قبل أن يتولى إدارة مدرسة حرة كبرى، بعد إحالته على المعاش.

وفي الحقل الوطني، تدرج من عضو عامل في خلايا الحزب الوطني، إلى مسؤول في فرع سلا، ثم ارتقى إلى عضوية المجلس الوطني، واللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، بعدما أبلى البلاء الحسن، على إثر المظاهرة الكبرى التي نظمت بسلا في أعقاب إعلان وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944 واحتجاز قيادة الحزب.

تحمل مسؤوليات إدارية واجتماعية بعد الاستقلال، إلى جانب مهامه السياسية والتعليمية، فبعدما انتخب في مجلس

بلدية سلا، أدى خدمات مازالت محل تقدير وعرفان، وظل لفترة طويلة، رئيساً لتعاضدية الموظفين، فكان يسهر على مصالحهم بكد ونشاط.

لم يأل جهداً في العمل التعليمي، والتربوي، والوطني، والحقل الاجتماعي، إلى آخر أيام حياته، رغم اعتلال صحته، لقد ربى جيلا من الشباب على الانضباط والقيم العالية، وعلى حب البلاد، وخدمة الصالح العام، مثل مَا ربى أنجاله الثلاثة وكريماته الثلاث حفظهم الله، تربية صالحة، وأسهم في تزويدهم بالمعرفة التي أهلتهم لاقتعاد أعلى المراتب.

رحم الله الفقيد المناضل أحمد بن اليمني، وأثابه على قدر ما أعطى، لقد كان من جيل الكفاح، والبذل، بدون حساب، هذا الجيل الذي ينقرض يوماً بعد يوم، وألهم أرملته الفاضلة، وذويه الصبر وجميل العزاء.

15 ذو القعدة 1415 / 15 أبريل 1995.

قاسم الزهيري

«33»

أبريل 2004

أخي الأعز أبا بكر

عائلته الكريمة : زوجته، بناتا، وبنين، أحفادا وأصهاراً وأقارب وأحبة بررة.

تحية طيبة متجددة.

وبعد، أستأذنكم في انتهاز هذه الفرصة، فرصة المفاجأة البهيجة، والتي دبرتموها والتي دعيت وزوجتي للمشاركة فيها، فرصة الاحتفال ببلوغ أخينا أبي بكر تسعين حولا، أمد الله في عمره، ومتعه بالعافية والهناء. أستأذنكم لإلقاء كلمة وجيزة، وإن كان المقام لا يقتضي تبادل الكلمات ؛ ذلك أنني تأثرت كثيرا بالدعوة الكريمة النابعة عن أبناء أخي أبي بكر، والدالة على أن الرابطة التي ربطتني بوالدهم، متصلة ومتواصلة، وهي ظاهرة نادرا ما تستمر، خاصة في هذا الزمان الذي نشاهد فيه التباعد شاسعا بين الجيل الصاعد وسلفه.

إنها ظاهرة تدل على التربية الممتازة التي لقنها أخي أبو بكر لأبنائه، ليست هذه الظاهرة إلا جانبا من جوانب شخصية الأستاذ الجليل سيدي أبي بكر، شخصية الأخ الفذة المتفردة، والتي لا أستطيع أن أشخص ولو جزءا يسيرا منها في هذه الكلمة لتعدد آفاقها.

لقد تبارى الباحثون أثناء حفلات التكريم التي أقيمت لأخي أبي بكر، وكانت أولاها التي أقامتها جريدة «العلم»، وترأستها قبل خمس عشرة سنة، ولقد أشارت إلى جوانب هذه الشخصية.

الواقع أن شخصية أبي بكر، برزت مبكرا وظلت عبارة عن سلسلة ذهبية متصلة الحلقات، من الأحجار الكريمة أزيد من سبعة عقود.

لقد استظهر الذكر الحكيم، وهو دون الخمس عشرة، واستوعب النحو، والفقه، واللغة العربية، وكثيرا من العلوم الإسلامية، بعدما استكمل العقد الثاني، على يد شيوح أفاضل مشهورين، وعرف في مسقط رأسه، بنشأته الخلقية العظيمة، فكان من السبعة الذين بشروا بأن الله سيظلهم يوم لا ظل إلا ظله.

اختار مهنة التعليم، خطة لتلقين المعارف والتربية السليمة القويمة، فكانت مدرسة النهضة وما تفرع منها، عبارة عن مزرعة أنبتت سنابل، استوت نباتا حسنا طيبا، وتوزعت على هذا القطر كله، فكان بشير خير وهناء.

في نفس الوقت انخرط في الحركة الوطنية، بل أصبح من المؤسسين لها، فرأيناه على حداثة سنه، من أعضاء الوفود التي كانت تقدم مطالبها، وتبلغ دعوتها، وفي مقدمة المناضلين، وما انفك يحمل الراية للريادة،... ما من قضية عربية أو إسلامية، إلا وله نصيب في الدفاع عنها، كتابة وخطابة وحضورا.

فما من رائد عربي وإسلامي في الداخل والخارج، إلا وله وثيق الصلة به، ومشاطرة نضاله، وقد كتب عن العشرات منهم في سلسلة «رجال عرفتهم» كما نشر تراجم بعض قادة الكفاح، ممن جمعته معهم ملاحم، ونشر عن الحركة الوطنية، فجاءت مصححة للأحداث، ومفندة لمزاعم الذين يريدون أن يمدحوا لما لم يفعلوا. كما نشر في مواضيع عقائدية واجتماعية وغيرها، كان آخرها رسائل أبوية، ضمنها بعض الخطابات التي تبادلها مع أبنائه وحفدته وأعضاء أسرته، طارحا معهم مختلف قضايا التربية والمبادئ والقيم العليا. مثلما نشر مراسلات مع إخوانه في الكفاح.

حياة أخينا العزيز أبا بكر، حياة حافلة ما فتئت أمد الله في عمره، منبعا للخير والعطاء، إنه بحق حسب المصطلح الحديث، مرجع إسلامي عربي أخلاقي، يتجسم الاعتدال فيه، دون مشادة ولا تطرف في ما يدعو له، وهو مثال يحتذي في عالم إسلامي، يموج بتيارات متنافرة متشاكسة. وإنه مفخرة لكم أهل بيته : بنين وحفدة وأقارب.

بقي أن أذكر أنني حظيت بمعرفة أخي، منذ أزيد من سبعة عقود، فكان رفيق الصبا، أخذت منه الكثير، وسرت على دربه، شاطرته الحلو والمر والكفاح، كنت وزوجتي معه ومع أسرته، نشعر بأننا أسرة واحدة، مع طيبة الذكر، المرحومة للازينب، التي نرجو الله أن تكون روحها حاضرة معنا في هذا المجلس.

لقد مضى على عهد أخوتنا، أزيد من سبعين حولا، ومع ذلك لم يعد فجر الشباب كلما كرت الليالي عليه، أعددت منه أوثق الأسباب.

أرجو الله في الختام أن تبقى راية الألفة والسعادة، ترفرف على هذه العائلة، وأن يمد الله في عمر عميدها وركيزتها الكبرى، أخي الحبيب أبي بكر ويرده برداء العافية والهناء.

إنه سميع الدعاء. والسلام عليكم ورحمة الله.

فاتح أبريل 2004 **قاسم الزهيري**

«34»

الحمد لله وحده.

بلغراد 5 يوليوز 1963.

ابني البار «خالد».

أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله.

أكتب إليك أول رسالة من عاصمة يوغسلافيا التي وصلت إليها مساء الأمس، على الساعة الحادية عشرة ونصف بتوقيت المغرب، ولقد وجدت في استقبالي بالمطار، سفيرنا ببلغراد الأخ قاسم الزهيري، الذي عبر عن ترحيبه وفرحه بهذه الزيارة التي كان ينتظرها هذه مدة من خمسة أشهر.

لقد كان السفر في الطائرة مريحا، وإن كان طويلا في الجملة، و لم أشعر بالعياء إلا في الساعة الأخيرة، حيث طويت صحفي، وأغفوت إغفاءة خفيفة، انتبهت خلالها على صوت المضيفة، وهي تعلن قربنا من بلغراد، وتطلب منا أخذ الأهبة، وربط الحزام، والاستعداد للنزول.

كانت الطائرة مكتظة بالمسافرين، وكلهم كان قاصدا موسكو، باستثناء مسافرين اثنين نزلا معي ببلغراد.

(1) رأيت من المناسب أن أنشر ضمن هذا الكتاب، بعض الرسائل التي كتبتها لأبنائي، من يوغوسلافيا، عندما كنت ضيفا على أخي المرحوم قاسم الزهيري، والتي فيها بعض المعلومات المفيدة عن القطر اليوغوسلافي.

لقد تناولت طعام العشاء بالطائرة، بعد ركوبنا في الطائرة بساعة لا غير، ولقد كان الطعام لذيذا وكافيا، فيه دجاج وخضر وفواكه وخنزير (الذي لم آكله طبعا) ومعه كأس من الشاي، ينقصه شيء من السكر.

مطار بلغراد فخم للغاية، ويظن النازل فيه، أنه يتلقى الكثرة الكثيرة من المسافرين، إلا أنه لا يرد عليه حسبما قيل لي، إلا أقلية قليلة، وهو يبعد عن المدينة بنحو 12 كيلومتر تقريبا.

بعد وصولنا لمنزل الأخ قاسم، استقبلتنا «دادة» بالحليب والتمر، مظهرة مع الأبناء فرحا ما عليه من مزيد، ولقد تناولنا كؤوسا من الشاي، الذي هيأته بنفسي، ثم سهرنا لغاية الرابعة، حسب توقيت المغرب (ساعة واحدة للفرق) حيث بدأ النهار يطلع علينا، ولقد تساءل قاسم عن سبب تغيب زينب، فأجبته بالأسباب.

سأكتب إليكم بعد هذا، وبعد أن أطلع على معالم بلغراد.

تحياتي لأبنائي ولوالدتك ووالدتي والسلام.

والدك : أبو بكر القادري.

«35»

الحمد لله وحده.

بلغراد 6 يوليوز 1963.

كريمتي العزيزة.

أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله.

بالأمس وجهت لخالد برقية أخبره بوصولي سالما والحمد لله، كما كتبت له رسالة مختصرة، ولقد قضيت سحابة الأمس، أطوف على بعض شوارع المدينة، بعد أن قمت بزيارة سفارة المغرب، وتعرفت إلى بعض الموظفين بها.

ولست أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن هذه المدينة، نظرا لأني لم أطلع إلا على.... اليسير من أحوالها، وكل ما يمكنني أن أخبرك به، أن صناعة الأشياء الجلدية، مثل الحقائب، والصاكات، توجد فيها بثمن لابأس به، أما بقية المعروضات فليست تخلب الألباب، ولا تلفت الأنظار.

كان الطقس حارا بالأمس في الجملة، أما اليوم، فهو أكثر حرارة، ولذلك فإني قضيت الصباح كله بالمنزل، أطالع بعض الكتب، وأستنشق الهواء بحديقة البيت، وبعد الغداء ذهب عمك قاسم لاستقبال زوجته التي كانت بموسكو، صحبة السيدة فاطمة حصار، ولدى حضورها، أظهرت من الترحيب

والسرور الشيء الكثير، وتأسفت لأني لم أصحب معي والدتك، فاعتذرت لها ببعض الأسباب، وفي المساء طفنا بضاحية المدينة التي تشتمل على كثير من الحدائق ذات الأشجار الباسقة، ثم قصدنا مطعما مشرفا على المدينة، حيث تناولنا فيه طعام العشاء، وسهرنا لغاية العاشرة والنصف، ثم قفلنا راجعين إلى البيت.

لحد الساعة، لم نخط البرنامج النهائي لهذه الرحلة، والمدن التي سأزورها، وهل سيكون برفقتي في جميعها الأخ قاسم، أم سأزور البعض منها منفردا، ويظهر لي أن السفر منفردا، ستكون فيه نوع من الصعوبة، وذلك من حيث التخاطب، فغير خاف عنك، أن أهالي البلد لا يتكلمون بالعربية، ويتكلمون بلغة تبعد كثيرا حتى عن اللاتينية، ولا يفهمها إلا أهل البلاد المجاورة، وعلى أي، فلابد من التغلب على هذه المشكلة ببعض الحلول.

وبعد فما هو هذا القطر الذي أزوره الآن، وما هو موقعه ؟ وما هي حدوده ؟ إن القطر اليوغسلافي، يقع على حدود كثير من الأقطار، هي : ألبانيا، واليونان، وبلغاريا، ورومانيا، والمجر، والنمسا، ثم إيطاليا، وهو يطل على البحر الادرياتيكي، الذي تتناثر في مياهه كثير من الجزر، واسم يوغسلافيا، مشتمل على كلمتين هما : «يوغ» و«سلافيا» ومعنى «يوغ» الجنوب، أي جنوب السلاف، وسكان يوغسلافيا، ينحدرون من عدة أصول، هي : صربيا، ومقدونيا،

والجبل الأسود، وكرواتيا، وسلوفينيا، والبوسنة، والهرسك، وقد كانت هذه المناطق خاضعة للنمسا، والمجر، ولإيطاليا، كما سبق للأتراك أن استولوا على جزء منها.

ولقد كانت هذه الشعوب التي تتألف منها يوغسلافيا، متطاحنة متشاكسة، ومرت عليها عدة تطورات، وأحداث، وإثر الحرب العالمية الأولى، قامت بها دولة موحدة في نظام ملكي، وبعد الحرب العالمية الثانية بمدة، أي في يناير 1953 أعلن عن النظام الجمهوري بيوغسلافيا، وانتخب الرئيس تيتو، أول رئيس للجمهورية، وسأحدثك في رسالة أخرى عن هذه الشخصية، التي قامت بدور فعال في وحدة الشعب اليوغسلافي، وبناء المجتمع اليوغسلافي، على أسس اشتراكية شيوعية.

وسكان يوغسلافيا الآن، يقدر عددهم بنحو العشرين مليونا، وفيهم نحو المليونين من المسلمين، وتعتبر مدينة سرايفو، كعاصمة للمسلمين، حيث يوجد بها كثير من المعالم، والمآثر الإسلامية، وسأزورها قريبا، حيث أحدثك عما أشاهده فيها، كما أحدثك عن حالة المسلمين بهذه الديار.

والحياة في يوغسلافيا حياة مستقرة، ومستوى العيش فيها متوسط، والعملة لا يتقاضون أجورا مرتفعة، بل تقرب من الأجور التي يتقاضاها العملة في بلادنا، أما الموظفون والأطباء، فأجورهم منخفضة نسبيا، والبلد وإن كانت زراعية، إلا أنه من العسير أن تجد بعض الغلل، والخضر الجيدة، والسبب يرجع إلى أن الكثير من هذه الخضر، والفواكه، تصدر إلى الخارج.

بالأمس رجعت السيدة عقيلة الأخ قاسم، كما ذكرت لك، ولقد اقترحت أن نقوم بسفرة إلى بعض البلاد المجاورة، مع زوجها وأبنائها، وهي تنتظر أن تزورها، زوجة السيد عبد السلام الحراقي سفير المغرب بمالي.

بدأت بكتابة هذه الرسالة بتاريخ 6 الجاري و لم يمكنني أن أتممها إلا اليوم 7 منه. حيث أن الحرارة شديدة للغاية، و لم يمكنني أن أفارق المنزل طوال اليوم، وها أنا أكتب إليك هذه الرسالة ونحن جالسون جميعا، نتشكى من كثرة الحرارة، وننتظر اعتدال الجو، لنذهب إلى بعض النوادي أو المقاهي.

لست أدري أيمكنني أن أشتري لكم بعض الهدايا، أم سأرجع خاوي الوفاض، وكيفما كان الحال، فإني أطلب منك أن تذكر والدتك بما اتفقت عليه معها، في شأن ما سيجلبه لنا الأخ البقالي من بيروت، فلقد فاتني أن أتفق معه، أو أذكر له شيئا في الموضوع، فلتستدعوه إلى منزلنا، ولتدفع له أمك نحو 50 ألف فرنكا، أو تتفقوا معه على أن تدفعوا المقدار اللازم لعائلة للاغيثة الزهيرية، حيث يؤدي ولدها في بيروت، نيابة عنا، ونحن نؤدي له في المغرب.

قبلاتي لجميع إخوانك، وأخواتك، وأشواقي لوالدتك وسلامي لوالدتي.

أبوك : أبو بكر القادري.

«36»

الحمد لله وحده.

بيوغراد 8 يوليوز 1963.

ابني فريد، أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله.

قضيت أمس، النهار كله، بالمنزل، أطالع بعض الكتب التي صحبتها معي، وأتبادل الحديث مع الأخ قاسم، الذي لم يفارق بدوره المنزل، نظرا لعطلة الأحد. وحوالي السابعة عشية، خرجنا نتجول في بعض أطراف المدينة، وهكذا قصدنا مكانا يبعد عن المدينة بنحو 12 كيلومتر، ويدعى «أفالا»، وفي طريقنا إلى أفالا، سرنا في طريق جبلية منعرجة، مكتظة بالأشجار الباسقة، وتكون مكسوة أيام الشتاء بالثلوج التي تتساقط بكثرة، ولقد تذكرت ونحن نشق تلك الطرق، مقامنا بإفران في السنة الفارطة، وتجوالنا في نواحيه، الفينة بعد الأخرى، مع بعض الفوارق التي تجعل إفران أجمل وأمتع.

وهذا المكان الذي قصدنا إليه، عبارة عن نصب تذكاري، أقيم في قمة جبلية جد مرتفعة، وهو يخلد موقعة حربية، بين اليوغسلافيين والألمان، قتل فيها الألمانيون نحوا من 30 ألفا من خيرة الأساتذة، والطلبة، والتلاميذ، واستبسل فيها اليوغسلافيون استبسالا ما عليه من مزيد.

والنصب المذكور، يصعد إليه الإنسان بعدة درج جد متسعة، ويجد أمامه ثمانية تماثيل، منحوتة من المرمر الخالص، كل واحد منها، يرمز إلى المقاطعات التي تكون القطر اليوغسلافي. فغير خاف عنك أن جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الشعبية، تتكون من ست جمهوريات، ومقاطعتين أخريين، لهما نظامهما الخاص، والرئيس الأعلى لهذه الجمهوريات، هو المارشال تيتو، الذي انتخب رئيسا للحكومة الاتحادية سنة 1945، ثم انتخب بعد ذلك أول رئيس لجمهورية يوغسلافيا.

ولقد وجدنا المكان المذكور، مكتظا بالزوار، ويقصده أيضا الشخصيات الرسمية، من ديبلوماسيين وغيرهم، ليضعوا فيه باقة من الأزهار، باسم دولهم، كتقدير منهم للبطولة والدفاع عن الوطن، ضد المغتصبين الغزاة، ولقد لاحظنا باقة كان وضعها سفير المغرب ببلغراد، وأخرى وضعها وزير العدل المغربي، عندما قام بزيارة ليوغسلافيا، لازالتا معروضتين أمام الزوار.

وبعد هذه الزيارة، قصدنا مقهى لطيفا واقعا في ربوة عليا، ويشرف على ساحة واسعة، تجمع فيها الكثير من سكان بلغراد، بمناسبة عطلة يوم الأحد الأسبوعية، وصاروا يرقصون رقصات شعبية بريئة، في شبه دائرة واسعة، وقف وسطها عازفان يوقعان على كيثارة، أنغاما حلوة، والراقصون والراقصات من حولهم، يرقصون متتبعين تلك النغمات.

وهكذا قضينا ساعة طيبة، يرافقنا زيادة على عقيلة الأخ قاسم، أبناؤه الثلاثة : أمين، ورشيد، والصغيرة التي يسمونها : بيبش.

ابني فريد.

ستصلك هذه الرسالة، وأنت تودع السنة السابعة عشرة من عمرك، وتستقبل سنة جديدة في حياتك، أرجو أن تكون مليئة بالنشاط، والمسرات، وأن يعينك الله فيها ويوفقك، حتى تتقدم في ميدان العلم، والمعرفة، والنضج الفكري، وتزيد ترقيا في أخلاقك، وسمو أفكارك. وإذا كان لي من نصيحة أوجهها لك بهذه المناسبة السعيدة، فهي إلفات نظرك إلى أن الظرف الذي تعيشه الآن، يفرض عليك أن تكثر من التفكير، ومن الارتواء بالمعارف، والمحافظة على وقتك، حتى لا تضيع لك منه ولو دقيقة واحدة، فالوقت كما يقولون : كالسيف، إن لم تقطعه قطعك.

إنك يا ولدي تنمو نموا سريعا والحمد لله، وإني كوالد يضمر لولده كل حب وعطف، أود أن تستفيد كثيرا في هذا الطور من حياتك، وأن تمرن نفسك على محاسبة الضمير، وأن تخط طريقك إلى المستقبل، بكل يقظة وعزم وإرادة.

إنني لا أعيب عليك شيئا في سلوكك الأخلاقي، ولكني أنبهك ـ وهذا واجب علي ـ إلى أن الشاب إذا ما بلغ سن الثامنة عشرة، فإن مسئوليته تتضخم، وواجباته تعظم، واصطدامه بمشاكل الحياة يقترب.

والرجولة يا ولدي، ليست أمنية يتمناها الشاب، ولا حلما يحلم به، وإنما هي تدريب وشعور، وسلوك في الحياة، فإذا أراد الشاب أن يكون محترما مقدرا ناجحا في الحياة، فعليه أن

يهيئ نفسه لهذا الاحترام، وهذا التقدير، حتى يفرضه على أقرانه، وعلى غير أقرانه على السواء. وإذا أردت أن تكون ناجحا في حياتك، محترما بين أفراد عائلتك، فعليك أن تقيس جميع أعمالك وتصرفاتك وأقوالك بميزان من هو أكبر من سنك.

إن أخاك الأكبر أمامك، فلتجعله قدوة لك، خصوصا في دراسته، ونضجه، ولتحذ حذوه في معاملتك مع جميع إخوتك وأخواتك.

يجب أن تزيل بعض المركبات من نفسك، فإنك ابني، وعزيز علي، وأحبك كثيرا، وأعرف من صفاء طويتك، ونبل مشاعرك، وطهارة وجدانك، ما لا يعرفه الكثيرون، ولكن هذه المحبة التي أحبك، وهذا العطف الذي أعطف عليك، هما اللذان يفرضان علي أن أجعلك تتصور أني أعاملك ببعض الشدة لمصلحتك وخيرك.

إنني أهنئك بعيد ذكرى ميلادك، وأتمنى لك مستقبلا زاهرا، وعمرا مديدا، وأزودك برضاي ودعائي الصالح والسلام.

والدك الداعي لك : أبو بكر القادري.

«37»

بلغراد ـ يوغوسلافيا 17 يوليوز 1963.

الحمد لله وحده.

ابن البار «خالد».

أصلحك الله والسلام عليك ورحمة الله.

لقد رجعت من الجولة التي قمت بها صحبة الأخ قاسم بجمهورية البوسنة والهرسك. بعدما قضينا هناك نحو الخمسة أيام، والحقيقة أنها كانت جولة مفيدة وممتعة. كما أنها كانت متعبة أيضا، حيث أن الطرق ليست جميعها معبدة.

والملاحظة الأولى التي تتجلى للزائر لتلك الجمهورية، أن الإسلام انتشر فيها بعمق ظاهر، واستطاع أن يكيف المجتمع البوسني التكييف الإسلامي الخاص، ويطبعه بالطابع الذي نجده في مختلف الأقطار الإسلامية. كما أن المسلمين ضنينون بإسلامهم، متألمون من تجاهل العالم الإسلامي لهم.

لقد اتصلنا بمختلف الطبقات، فيهم العلماء، وفيهم الشباب، وفيهم مطلق أفراد الشعب، واستطعنا أن نغوص في أعماق المجتمع هناك، خصوصا عند زيارتنا لكثير من القرى التي يسكنها المسلمون، ويكونون فيها أحيانا أغلبية نسبية. فوجدناهم محافظين تمام المحافظة على القيم الإسلامية، معتزين

تمام الاعتزاز بانتمائهم للإسلام، متمتعين والحق يقال بكامل حقوقهم كأداء شعائرهم الدينية.

وقد يأتيك غريبا إذا ما ذكرت لك، أنه يوجد بمدينة سرايفو وحدها 73 مسجدا، اثنان وثلاثون منها تؤدى فيها صلاة الجمعة، بينما يوجد بيوغسلافيا كلها نحو 200 مسجد، مازالت مصونة مفروشة محافظا عليها في شكل جذاب، ربما لا يوجد في كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، كما أن العوائد التي تسير عليها كثير من العائلات الإسلامية، لا تختلف كثيرا عن العوائد ببلادنا، فلقد استدعينا لأحد البيوت بسراييفو، حيث تناولنا طعام الغذاء. والغريب في الأمر أن الشكل الذي قدمت لنا به المائدة، لا يختلف كثيرا ولا قليلا عما يوجد عندنا، فلقد جلسنا حلقة على مائدة مستديرة، وتناولنا الطعام بأيدينا، ثم قدم إلينا (الطاس) لنغسل أيدينا الخ.

أما في البادية، فتستطيع أن تتعرف للمسلمات بلباسهن الطويل، وهن مشهورات بنظافتهن بالنسبة لغيرهن، كما أن عادة الحجاب، لازالت مؤثرة فيهن.

ولقد كان يشاع أن نسبة المتعلمين بيوغسلافيا ضئيلة جدا بالنسبة لغيرهم، ولكنا اكتشفنا أن النظام البائد هو الذي كان السبب الرئيسي في تعميم الجهل بين المسلمين، أما في العهد الحاضر، حيث يطبق مبدأ المساواة الدينية، فإن الشباب المسلم أقبل على التعليم بدرجة تدعو إلى الاغتباط، وتخرج من بينهم الكثير وأصبحوا لا يختلفون عن غيرهم، ثقافة، وتقدما، إن لم يبزوهم في بعض الجهات.

والمساجد هنا مفروشة جميعها بالزرابي، ونظيفة جدا، ولها موظفون دينيون يتقاضون أجورهم مثل غيرهم، ويتمتعون حتى بحقوق الضمان الاجتماعي والمعاش، مثل باقي الموظفين، وإذا كانت الأوقاف الإسلامية استولت الدولة على أغلبها، فإن 75 في المائة من ميزانية الموظفين الدينيين تدفعها الدولة.

بالأمس زارتنا بالمنزل فرقة فلكلورية من الطلبة والطالبات، ستزور الشمال الإفريقي قريبا، وستقضي بالمغرب ستة أيام، ولقد قامت الفرقة برقصة شعبية، كما قدّمت لنا بعض القطع الغنائية، أما في سراييفو فلقد قصدنا المسرح في إحْدَى الأمسيات، وقضينا هناك ساعة طيبة. أما جلستنا مع العلماء، فقد كانت مناقشة مفيدة حول مشاكل المسلمين، وكيف يجب أن يواجهها العلماء بطريقة جديدة تساير العصر والتطور.

سأذهب صبيحة الغد بحول الله، إلى زغرب، ومنها أقصد ترييشة، والبندقية، ثم أرجع إلى بيوغراء، حيث أقرر متى يكون رجوعي.

لم أتصل منكم بأية رسالة، و لم يصلني عنكم أي خبر، ورغما عن محاولتي الاتصال بكم تليفونيا، فإن الخط لم يكن صالحا، ولذلك تعذر الكلام، و لم أستطع مخاطبة والدتك.

سلامي وأشواقي لوالدتك، وإخوانك، وأخواتك ولتكتب لي إن أردت في عنوان السفارة. والسلام.

والدك : أبو بكر القادري.

«38»

الحمد لله وحده.

بودابست 26 يوليوز 1963.

ابني البار «خالد».

أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله.

لم أشأ أن أترك هذه الفرصة تضيع، دون أن أستفيد من زيارتي ليوغسلافيا، كل الاستفادات الممكنة، وهكذا قصدت مساء الأمس، عاصمة بودابست، التي تبعد عن بلغراد، بأربعمائة كيلومتر لا غير.

ولقد قضيت ليلة الأمس بإحدى المدن الصغيرة، الكائنة قرب الحدود اليوغسلافية المجرية، وتدعى مدينة «سيكيد»، واخترت لمبيتي نزلا ممتازا، وغير مرتفع الثمن، ويدعى نزل «بالاص» وكان يرافقني في رحلتي، سكرتير السفارة المغربية بيوغسلافيا، السيد محمد بنعيسى، الذي أخذني في سيارته.

وسأمكث هنا اليوم والغد، ثم آخذ السيارة.... إلى بلغراد، حيث آخذ الطائرة مساء الاثنين الآتي بحول الله، قاصدا المغرب حيث أصل صبيحة يوم الثلاثاء على 9.

ابني.

لا أستطيع أن أعطيك صورة عن هذه المدينة التي عليها طابع العظمة، نظرا لكثرة بناياتها، وضخامة جسورها، الممتدة

فوق نهر الدانوب العظيم. ويظهر لي أنها مدينة تتسم بطابع يختلف كثيرا عن المدن التي زرتها خلال هذه الرحلة.

آمل أن تكونوا جميعا ممتعين بصحة جيدة، وراجيا أن تبلغ سلامي وأشواقي لوالدتك وإخوانك، وجميع من يسأل عني. وإلى اللقاء إن شاء الله.

والدك : أبو بكر القادري.

«39»

الحمد لله وحده.

موستار 13 يوليوز 1963.

بنيتي العزيزة «سعاد».

إليك أشواق أبيك ورضاه.

بعد زيارة مدينة سرايفو، التي تعد بحق عاصمة المسلمين بيوغسلافيا، والتي يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة، قصدنا مدينة موستار، التي أكتب إليك منها هذه الرسالة، وأنا جالس على شاطئ نهر عظيم في ضواحيها القريبة جدا.

والحقيقة يا بنيتي، أن رحلة أبيك كانت مفيدة للغاية، وبالأخص فيما يتعلق باطلاعه على طبيعة هذه البلاد، وما منحها الله من جمال ومن جبال. ويزيدها جمالا، أن أغلبية جبالها شجرت، حتى إنهم يقولون : إن ثلثي جبال البوسنة، كلها مشجرة، فلقد قطعنا بالسيارة مسافات شاسعة، تتجاوز الخمسمائة من الكيلومترات، كلها خضر، ومياه وغابات.

وإذا كنت لا أستطيع أن أكتب إليك بتفصيل عن رحلتي، وأعطيك صورة عن ارتساماتي التامة، فما ذاك إلا لأن وقتي مملوء بالزيارات، والمذاكرات، خصوصا مع جماعة علماء مسلمي يوغسلافيا، الذين أظهروا من الحفاوة بنا، والاعتناء، ما يستحقون عليه كل ثناء، فلقد أضافونا، فأحسنوا الضيافة، بل أبوا إلا أن تكون جميع النفقات على حسابهم، وأن يكون مقامنا بالبوسنة،

والهرسك، في كفالتهم، ومن ميزانيتهم، وزيادة على أنهم أكرمونا، أبوا إلا أن يطلعونا ويصاحبونا لزيارة الأماكن، والمعاهد، والمساجد، الإسلامية، هذه المعاهد والمساجد، التي تعد قطعا فنية، والتي لازالت تعمر بالمصلين والمتعبدين، التي يقصدونها عابدين خاشعين.

وهكذا أدينا فريضة الجمعة بأحد مساجد سرايفو الكثيرة، والتي يبلغ عددها بهذه المدينة وحدها، نحو السبعين مسجدا، وكم تأثرت يا بنيتي، لخطيب الجمعة، وهو يتحدث لجمهور المسلمين عن الأخوة الإسلامية، والرسالة المحمدية، وكم انفعلت وخشعت وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقول الرسول الأعظم ﷺ : «أيها الناس إن ربكم واحد، وأباكم واحد، كلكم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»، ثم يسوق أحاديث أخرى، وآيات قرآنية في الموضوع، كلها تحث على الاستقامة في السلوك، والوحدة في العمل، والتكاثف في البناء.

ولقد زدت يقينا بعظمة الإسلام، وصدق الرسول محمد عليه السلام.

لقد ذكرت لك في طليعة الرسالة، أننا قصدنا مدينة موستار، وهي تبعد عن مدينة سرايفو بنحو 140 كيلومتر، كما أن سرايفو، تبعد عن بلغراد بنحو 400 كيلومتر، وفي طريقنا من سرايفو، إلى موستار، استرحنا مرتين، إحداهما بقرية صغيرة «تونيت» وهي ممتازة بمناظرها الجذابة، ومائها الغزير، ثم مررنا

بمقهى آخر، واقع بجانب أحد الشلالات، وأمام نهر «بونه» ومعناها «الثورة» حيث قضينا ساعة، زمانية قدم لنا فيها المشوي مع القهوة، وعند وصولنا لمدينة موستار، قصدنا الفندق الذي أعد لنا، وجلسنا نحو الساعتين على شاطئ النهر المذكور، في مقهى عظيمة، حيث كان جوق يطرب السامعين، ومغنيته يوغسلافية، أعطاها الله من جمال الصوت، وحسن الأداء، ما كان يتأثر له جميع الحاضرين.

ومدينة موستار هذه، يبلغ سكانها 50 ألفا، نصفهم مسلمون، وهي تعتبر عاصمة الهرسك، كما أن سرايفو، تعتبر عاصمة البوسنة، وهي وإن كانت صغيرة في الجملة، إلا أن لها صيتا كبيرا، وذكرا حسنا، كما يوجد بها عدة معامل ومصانع، كصناعة النسيج، والدخان (السجاير) إلى غير ذلك.

وسكان هذه المدينة، يتنافسون مع سكان سرايفو، ويتبادلون وإياهم نكتا حلوة، وهي مشهورة كذلك بجمال أبنائها وجاذبيتهم، ويوجد بها عدة مساجد، وبعض المدارس الدينية.

إنني أكتب إليك هذه الرسالة، في انتظار وصول «فطور الصباح» وكم كان بودي أن أتمادى في الكتابة، إلا أن رفيقين من الرفقاء اليوغسلافيين، التحقا بي، فليس من حقي، أن أبقى متماديا في الكتابة، بل لابد من التحدث إليهم ومعهم، فلأمسك القلم عن الكتابة، ولأودعك على أمل الكتابة إليكم في فرصة أخرى، قبلاتي لأبنائي وبناتي جميعهم وسلامي الخاص لوالدتك، وإلى اللقاء أيتها البنية العزيزة، والسلام.

والدك : أبو بكر القادري.

«40»

الحمد لله وحده.

تيانيتيستا 14 يوليوز 1963.

بني العزيز «رشيد».

أصلحك الله والسلام عليك ورحمة الله.

أكتب إليك من هذا المصطاف الذي يدعى «تيانيتيستا»، وهو مصطاف جميل للغاية، ابتنوا به حديثا فندقا ضخما، وإن كانت بيوته جد صغيرة. والفندق المذكور، واقع في سفح جبل، ومشرف على مناظر طبيعية جذابة، فلقد حللنا بهذا المصطاف، مساء الأمس، بعد أن تناولنا طعام الغداء بقرية تدعى «بونه» وهي تبعد عن مدينة موستار بنحو 16 كيلومتر لا غير. وتتمتع بمناظر طبيعية جذابة، وأغرب ما لاحظته فيها، زاوية صغيرة، وهي عبارة عن معبد صغير، أنشئ عند مصب نهر بونه، ويقولون أن الذي أنشأه هناك، كان مقصودهُ الابتعاد عن البشر، والخلوة إلى نفسه، والتفكر في عظمة الكون، والاتصال بخالق الكون. والظاهرة الثانية التي لاحظتها في هذه القرية، أن المسلمين على اختلاف أجناسهم، كانت لهم عوائد متشابهة، وتقاليد متقاربة، فلقد أقاموا لنا نزهة بأحد المتنزهات، الواقعة على شاطئ النهر، قدمت لنا فيها أنواع المأكولات، وتبادلنا فيها الأحاديث مع جميع أفراد العائلة المضيفة، وكنا وكأننا جالسون في إحدى غابات إفران. أما الطرق التي كنا نمر منها إلى هذه القرى، فهي غير معبدة ولا مزفتة، بل السير فيها متعب بعض التعب، خصوصا وهي طرق جبلية، كلها انعراجات وانحرافات.

وقبل وصولنا لمصطاف تيانيتيستا، وقفنا قليلا في قريتين، تدعى إحداهما «تفيسين»، والأخرى «كاتسكو»، وهذه الأخيرة، ترتفع عن سطح البحر بنحو ألف ميتر، ولذلك يقصدها كثير من الشباب، للاستجمام والراحة. وفي كل من القريتين، كنا نقابل بالترحيب من السكان المسلمين، ويقدم إلينا بعض المشروبات.

بعد تناول طعام الفطور، سنفارق هذا المصطاف الجميل، قاصدين «سرايفو» من جديد، حيث نعقد جلسة دراسية مع هيئة علماء يوغسلافيا، ثم نقصد مسرحا لمشاهدة بعض النشاط الفولكلوري اليوغسلافي، وغدا إن شاء الله سنقفل راجعين إلى بلغراد.

ابني البار.

لاشك أنك وجميع إخواتك، متتبعون البرنامج الذي سطرته لكم، قبل سفري حيث تخصصون الصباح للمطالعة، والمراجعة، والمساء للتفسح، والرياضة، والاستجمام بالشاطئ. أما إخوتك الصغار، فلاشك أنهم يذهبون كل صباح إلى المدرسة، لمراجعة دروسهم كذلك.

أشواقي لجميع إخوانك : خالد وكريمة، فريد، سعاد، أسماء، صلاح الدين، سلمى، ناصر ومحمد، وكذلك لوالدتك العزيزة، ووالدتي الحنون، وسلامي لجدك ولجدتك، وخالك، وخالتك، والسلام.

والدك : أبو بكر القادري

حول كتاب
الشيخ عبد القادر الجيلاني
للأستاذ أبي بكر القادري

للأستاذ قاسم الزهيري

حين أتحفني الأخ العزيز، أبو بكر القادري، بكتابه الجديد، عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، انكببت على مطالعته، بعدما تصفحته باستعجال، فتبين لي، أنه جدير بقراءة متأنية وتأمل، لأنه لم يأت جامعاً فقط، لسيرة علم بارز من أعلام التصوف، بل لطرقه كثيرا من جوانب هذه الحركة، التي أثرت الثقافة الإسلامية، وتكفلت برفع ألوية الإسلام عالية، وبعيدة، في أنحاء العالم، طوله وعرضه، في أوقات العُسرة بالخصوص، وما أكثر ما مرّ منها على دار الإسلام، منذ نهاية الدولة العباسية في الشرق العربي، وانهيار الأندلس في غربه.

ذكّرني أخي أبو بكر، وأنا أطالع كتابه الجديد بكثير، مما صادفته في طريقي، طوال مسيرتي عبر ثلاث قارات، من آثار انتشار الإسلام، وخاصة انتشار الطريقة القادرية، وما يتمتع به مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني، من تبجيل شرقا وغرباً؛ كما تداعت في ذهني، ذكريات عما تيسر ما وقفت عليه من كتب، ألفها الغربيون عن مكارم الشيخ وأفضاله، وعن الصوفية الإسلامية وأدبياتها بوجه عام.

كان آخر كتاب قرأته لأكبر مستشرقة ألمانية في العصر الحديث، Anne Marie Shimmel بعد ما تتبعت محاضراتها عن محمد إقبال، في الدارالبيضاء والرباط، قبل نحو أربعة شهور، عنوان كتابها : «الصوفية وأبعادها الزهدية في الإسلام»، وقد منحها الناشرون الألمان، جائزة السلام عن مؤلفاتها الكثيرة، التي لم يترجم منها للفرنسية، إلا هذا الكتاب، وكتاب «أرض الإسلام»، وسأعود إلى بعض ما كتبته.

الواقع أن كتاب «الشيخ عبد القادر الجيلاني، ودورهُ في الدعوة الإسلامية في العالمين الأسيوي والإفريقي» لأخينا أبي بكر، ثروة قيمة، انضافت إلى التراث عن التصوف الإسلامي، في هذا الظرف الذي تسعى فيه أوساط «عصرانية» وغيرها، للتفريق بين جانبين متلازمين في الثقافة الإسلامية : جانب الظاهر، وجانب الباطن» أو كما يحلو لأخينا الدكتور المهدي بن عبود عافاه الله أن يردد في أحاديثه : عالم الشهادة، وعالم الغيب.

صور أخونا أبو بكر بكثير من الجهد، العالم الثاني في الصفحات الستين من كتابه، حيث حلل الصوفية وما تفرع عنها، وعرض تطور الفكر الصوفي في الإسلام، قبل مولد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وفي عصره، تبين أن «التصوف معاناة ومجاهدة، وأن الصوفي من كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها.. ملازماً للحقائق إلخ..»، واستشهد على هذه المجاهدة بقول حجة الإسلام الغزالي : «المجاهدة طريق شاق طويل، محفوف بالمكاره والأخطار» واعتبار القشيري بأن : «أصل المجاهدة، فطم النفس عن المألوفات، وحملها على

خلاف هواها»، وكما قال مؤلف الكتاب الذي نحن بصدد تحليله : «طريق الصوفي الحقيقي، هو استشعاره دائماً أنه عبد الله، وأن عبوديته لله، هي التي تحرره من عبودية المال والجاه، وتقتضى منه الإخلاص.. وعدم الغرور بما يتمتع به من زخارف الدنيا، ومخالفة النفس، والهوى، والشيطان».

ثم يسترسل المؤلف في استعراض حياة الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني، منذ مولده في إقليم جيلان، على ساحل بحر قزوين، إلى رحيله لبغداد، حيث نشأ وتعلم، وسلك طريقة التصوف، ثم تفرغ إلى التدريس والدعوة، بعدما جمع بين علمي الشريعة، والحقيقة، إلى أن بلغ درجة التجلي، كان بلا شك من أتباع الإمام الحسن البصري، الذي سبقه بثلاثة قرون، والجنيد الذي سبقه بقليل : الأول نشأ وعلم بالبصرة، والثاني ببغداد، وكانا من مؤسسي الحركة الصوفية الخالصة ومنظريها.

كانت حلقات دروس الشيخ عبد القادر، يزدحم عليها طلبة العلم، شباناً، وكهولا، وشيوخاً، وتسترشد بها الطبقات الحرفية، من شتى الأنواع، كتبت المستشرقة الألمانية : «نشأ في بغداد، داعية حنبلي، مرموق كانت جماهير غفيرة تتهافت عليه، وكان بدون منازع، أعظم صالح يتمتع بشعبية واسعة» وأردفت قائلة : «كان قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد، يحج إليه عدد وفير من الأتقياء، خاصة من الهند، حيث ترسخت طريقته في نهاية القرن الرابع عشر».

لماذا كُني الشيخ عبد القادر الجيلاني بمحيي الدين ؟ حكت المستشرقة شيميل قائلة : لقد بلغت سمعته ذروة لا تتصور،

حتى كُني بمحيي الدين، أي بالشخص الذي أعاد الحياة للدين، أصل هذه الكنية، أسطورة جميلة، مضمنها أن هذا الرجل الصالح، لقي امرأة بائسة خائرة القوى، تعاني سكرات الموت من الجوع، فأحنى عليها، وأخذ يعالجها، ويطعمها شيئاً فشيئاً حتى ذهب ما بها، فلما أفاقت وجهت له الخطاب قائلة : «إني العقيدة الإسلامية»، من ذلك الحين كني الشيخ بمحيي الدين (انتهى مضمون كلام المستشرقة)، هذه أسطورة لاشك في ذلك، إلا أنها ترمز إلى ما كان يتمتع به الشيخ، من إعزاز وتعظيم، بما ينسبون إليه من خوارق.

لقد أورد أخونا أبو بكر إشعاع الطريقة القادرية وانتشارها في الدنيا، وما قامت به من دعوة في القارتين الأسيوية والإفريقية، وأغفل ذكر أوروبا في عنوان الكتاب من جملة القارات التي ترسخت فيها أقدامها، وقد سبق أن زرت مع المؤلف، البوسنة، والهرسك، حين كانت مقاطعة إسلامية خالصة، قبل المحنة التي عانتها في السنوات الأخيرة، وكانت الطريقة القادرية منتشرة فيها، وكان الكثير من القائمين على عشرات المساجد، والنوادي الدينية، والأدبية والمكتبات، في البوسنة، وعموم جمهورية يوغسلافيا الاتحادية، إذ ذاك قادريين : شباباً وشيوخاً متفتحين، مقتنعين بتزاوج التراث والحداثة، ناهيك بالمرحوم الشيخ سليمان كامورا رئيس الجماعة الإسلامية الأسبق، والمرحوم الشيخ حسين جوزو وغيرهما، واحسرتاه على مكتبة خسروبيه في سراييفو، وما كانت تحتويه من ذخائر، وعلى مساجد موستار، هاتين المدينتين الإسلاميتين اللتين دمرهما الأوغاد ! وقد حضرت في بلغراد سهرات دينية، أقيمت بمسجدها

الجامع، كانت تتلى فيها سور من الذكر الحكيم، وتنتظم فيها حلقات للأمداح النبوية والسماع، باللغة السربية ـ الكرواتية.

وفي سويسرة جماعة من مسلمي أهل البلد، تعد بالآلاف، كثير منهم اعتنقوا الإسلام عن طريق القادرية، منهم علماء في العديد من التخصصات، ورجال أعمال يخفون عقيدتهم، بعضهم اعتنق الإسلام على يد المرحوم الشيخ محمد بوشعراء من سلا، فلا تكاد تذكر لهم المغرب، حتى يتبادر اسمه إلى أذهانهم، حضرت سهرات للذكر، يقيمونها بمناسبة الأعياد الدينية في جنيف، ولوزان، وزوريخ، يتحلقون ويرتلون المدائح، في كثير من الخشوع، أعجب من شاهدت من بينهم، خليفة مدير معمل كبير، في مدينة بازل، اعتنق الإسلام هو وزوجته، استضافاني، وزوجته الصالحة، كريمة لراعي الديانة الكاليتية في هذه المدينة.

لقد أفاض أخي أبو بكر في التحدث عن مسلمي ما كان يسمى قبل بالاتحاد السوڤييتي، مستنداً على بعض أبحاث السيدة هيلين كاريير دانكوس Héléne Carrière D'Encausse صاحبة الدراسات القيمة عن هذا الاتحاد، وقد سمت أحد كتبها «الأمبراطورية المتفجرة» وذلك قبل أن تتفجر بخمس عشرة سنة، وأضيف إلى ما كتبه أخونا أبو بكر، ما جاء في كتب الصديق العزيز، فانسان مونطي، الذي أسلم وأطلق على نفسه منصور الشافعي، عافاه الله، له عشرات الكتب والأبحاث عن الإسلام، والعرب، واللغة العربية، والمغرب، والكتاب الذي يعنينا في هذا الصدد يسمى «المسلمون السوڤييتيون» ذكر فيه دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام بهذه البلاد، وبالمناسبة صدر له كتاب قديم طبع عدة مرات أسماه «الإسلام الأسود» ويعني به انتشار

الإسلام في افريقيا السوداء عموماً، أفرد صفحات من كتابه هذا لدور الطريقة القادرية، في نشر الإسلام، خاصة في السنغال حيث اشتغل طويلاً، وحيث تتنافس هذه الطريقة مع الطريقة التجانية، يسمى أتباع الطريقة القادرية بـ«المريدين» وعددهم يربو عن المليون، والجدير بالتنويه ما يقومون به من منجزات اجتماعية، وفي حقل الزراعة بالخصوص، تعج عاصمتهم طوبى، بالمساجد ذات الصوامع الشاهقة، يحج إليها الآلاف من أتباعهم، مرة في السنة بمناسبة عيد المولد النبوي.

نعود إلى انتشار الإسلام في آسيا والشرق الأقصى، فزيادة عما ذكره المؤلف صدر كتاب مهم لباحثين كبيرين، هما أليكساندر بينيجسن Alexandre Bennigson وشانطال لوميرسيي ـ كيلكوكوجي Chntal Lemercier - Quelquejai بعنوان المسلمون المنسيون، الاتحاد السوفيتي والإسلام، خصصا صفحاته، لانتشار الإسلام في ست جمهوريات، ونحو خمس وثلاثين جماعة في ذلك الاتحاد، وذكرا في العديد من الصفحات، دور الطريقة القادرية من جملة الحركات الإسلامية الأخرى في نشر الإسلام، على امتداد رقعة تزيد مساحتها عن اثنين وعشرين مليون كيلومتر مربع، فصل المؤلفان هذا الدور أولاً في الدعوة الإسلامية، ثانياً في المحافظة على العقيدة، وثالثاً في مناهضة حملة الدولة الشيوعية ضد الأديان، وفي مقدمتها الإسلام، منذ قيامها سنة 1917 إلى انهيارها.

بقي أن أشير بكلمة مقتضبة إلى كتاب صدر عن انتشار الإسلام في الشرق الأقصى بالخصوص، ألفه الباحثان روني كانيا René Cagnat وميشال جان Michel Jan، عنوان الكتاب :

(وسط الامبراطوريات، بين الصين واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والإسلام، مصير آسيا الوسطى)، فصل الباحثان القول في الأحوال العامة للمجتمعات التي تتشكل منها هذه الرقعة الشاسعة النائية من العالم، ومنها آسيا الوسطى، أي الجمهوريات الإسلامية وما في حكمها، والصين بجزء كبير من كتابهما، مركزين على دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام، وإذا كانت هذه العقيدة وصلت في العشرية الثانية من التاريخ الهجري، إلى الصين، فإن تغلغلها وانتشارها جاء بعد ذلك على نحو ما تقدم، فكان للإسلام صولة في الأسر المالكة التي تعاقبت على الحكم في الصين، واكتسح التركستان بقسميها الغربية، التي ألحقتها روسيا، والشرقية التي ألحقتها الصين، وأطلقت عليها اسم سينكيانغ، أي الصين الجديدة، وقد جاهد التركستانيون عبر القرون، لرد الزحف الثنائي، إلى أن نفذت ذخيرتهم، ومازالوا يجاهدون في التركستان الشرقية، وقد حافظوا على هويتهم وعقيدتهم، لكن التعتيم يخيم على نضالهم من لدن وسائل الإعلام، التي يوجد معظمها بيد الخصوم.

خص أخي أبو بكر حيزاً في كتابه القيم لأذكار الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأشعاره، ومقالاته الرمزية، وأوراده، وهي وجه من وجوه الثقافة الإسلامية؛ وأقل مما كان يتمتع به الشيخ من إشعاع روحي، وكان يلقنه من دروس في الشريعة، والسلوك، مما خلد ذكره، ومعلوم أن كبار مشايخ الصوفية، ابتداءً من الإمام الحسن البصري، والجنيد، رغم علو مقامهم، خلفوا بالخصوص مريدين، سجلوا آثارهم، وخلدوا تعاليمهم، على خلاف بعض الجهاندة أذكر منهم ابن الفارض، وابن

عربي، وجلال الدين الرومي، وأوحد الدين الكرماني، ويقرب منهم محمد الحراق التطواني، ومقام الشيخ عبد القادر الجيلاني، وماخلفه في نفوس تلامذته، ومريديه، يعلو عما كتب، حيث كان يعني بالجوهر، أكثر مما يعنى بالعَرض، فإبراز الجانب الباطني، بالنسبة إليه هو اللب والجوهر.

وما «الشعر الصوفي ـ كما يقول أحد الباحثين الألمانيين ـ إلا منطق الروح، من خلال التجربة الدينية التي عاشها أقطاب مشهورون في هذا الميدان، ممن ذكرنا بعضهم.. وأن آثار أهل الصوفية، ممن ساهموا بقسط وافر في نشر الإسلام، تفصح عن صراع باطني دفين، وعن تركيز قوي للنفس المنغمسة كلها في الحقيقة الدينية، وهو صراع مشوب غالباً عندهم بشيء من الحرقة والألم، ويهدف إلى البحث عن أسرار الذات واستكشاف أنواع المعرفة، التماسا لحقيقة الحق الأوحد».

* * *

لعلي أطلت في الحديث عن كتاب أخي أبي بكر، فمعذرة لكنني لا أريد أن أغفل جانب الكتاب الذي خصصه للعائلة القادرية في عموم المغرب : مأثاها ومأواها، وإبراز أعلامها، ثم للتعريف بأسرته الصغيرة كلأها الله بحفظه ورعايته.

وأود في الختام أن أهنئ أخي الحميم أبا بكر من صميم القلب، على هذا الأثر الجديد، الذي يضاف إلى ما كتبه في شتى الأغراض، وأثرى به الثقافة الإسلامية في هذه الديار؛ وهو المعلم والمهذب والمربي، زاده الله توفيقاً، وأجزل له الثواب، ومتعه وأهله بالعافية والهناء.

سلا في 6 صفر 1420 / 22-5-1999. **قاسم الزهيري**

الأزمة المغربية[1]

أسبابها ـ تطوراتها

للأستاذ قاسم الزهيري

منذ أوائل هذه السنة، تجري أحداث خطيرة للغاية في المغرب الأقصى، وتعيش البلاد في جو مكفهر، من جراء سياسة القوة والطغيان، التي سلكتها الإدارة الفرنسية، أو بالأحرى الجنرال جوان، إزاء جلالة الملك من جهة، وحزب الاستقلال من جهة أخرى. وقد دبر الجنرال جوان وأعوانه، خطة من التهريج، وحرب الأعصاب، انتهت ليلة الأحد 26 فبراير المنصرم، بتوقيع نص اتفاقية، ما بين القصر، والإقامة العامة، تحت الضغط والاكراه، ولا يعلم أحد إلى الساعة الراهنة، نص هذه الاتفاقية، وإنما ظهرت بعض محتوياتها، بصدور تغييرات في الهيئة الوزارية المغربية، وتعيينات في

(1) هذا تقرير هام كتبه المرحوم قاسم الزهيري، ويتعلق بالأزمة الحادة التي وقعت بين جلالة محمد الخامس والجنرال جوان، والتي ترجع إلى سنة 1950-1951 والتي أدت إلى توقيع جلالة الملك على البروتوكول الذي وضعته الإقامة العامة، بموافقة رئيس جمهورية فرنسا، تحت الضغط والإكراه، وفي التقرير تفاصيل ضافية، عن تطورات هذه الأزمة، التي يجب أن يطلع عليها المهتمون بقضايا معارك تحرير المغرب من قبضة الاستعمار.

مختلف مناصب الحكم، بكثير من الجهات، فقد أقصى جميع العناصر التي عرفت بمحبتها للبلاد، ومعارضتها لمساعي الاستعمار الفرنسي، وعين محلهم أشخاص، شبوا في أحضان المستعمرين، وألفوا الطاعة والخنوع إليهم، ومن المفيد أن نأتي فيما يلي، على مظاهر الأزمة الحاضرة، وأسبابها، والنتائج المباشرة التي ترتبت عنها، على سبيل الاختصار، لتتكون للقارئ نظرة عامة، عن الموقف السياسي الحاضر بالقطر المغربي.

رحلة جلالة الملك إلى فرنسا :

لابد من الرجوع إلى هذه الرحلة، والإشارة إلى ما تم خلالها، لأنها تعتبر نقطة الابتداء في الأزمة الراهنة، فمن المعلوم أن جلالة الملك، استدعى خلال شهر أكتوبر من السنة الماضية، إلى فرنسا، وبذلت الحكومة الفرنسية جميع الجهود لاستقدامه، واشترط جلالته من جهته، أن يطرح على أنظار المسؤولين الفرنسيين، القضية المغربية، وقبل شرطه، كما قبلت الإقامة العامة تشكيل الديوان الملكي، الذي كانت تعارض فيه على الدوام، واشتمل الديوان على شخصيات معروفة بكفاءتها وإخلاصها.

وخلال الرحلة التي استغرقت أزيد من شهر، احتفلت الحكومة والشعب الفرنسي، بالعاهل المغربي، احتفالات جديرة بكبار رؤساء الدول، وبدأت المفاوضات بين جلالته، وبين الحكومة الفرنسية، على أساس مذكرة أولى، قدمها العاهل المغربي، وطالب فيها بتأسيس العلائق المغربية ـ الفرنسية، على

أسس جديدة، كما تعرض فيها إلى ما تعانيه بلاده من كبت وتضييق، وطالب بإلغاء وضعية الحماية،وبذلك أصبح جلالته رسميا، يطلب استقلال المغرب، مثل شعبه الذي ما انفك يسعى لنيل هذا الهدف منذ 1944، ودخلت القضية المغربية إذذاك في طور جديد، وشرف موقف العاهد المغربي في الدفاع عن استقلال بلاده وغرب، ووضعت الحكومة الفرنسية لأول مرة أمام مسؤولياتها، وبقي المغاربة ينتظرون ما ستفعل، وصرح ناطق بلسانها، أن المفاوضات ستستأنف في الرباط، وستتركب لجنة مختلطة لهذه الغاية، وعاد جلالة الملك إلى بلاده، فاحتفى به الشعب احتفاء بالغاً حد الروعة والجلال، مظهراً تأييده التام لموقفه الجليل.

موقف حزب الاستقلال :

حزب الاستقلال ـ كما لا يخفى ـ هو الحزب الوحيد الذي تتبلور فيه رغائب الشعب المغربي ومطامحه، ويحظى بتأييد العناصر الحية من مختلف الطبقات، سواء في الحواضر أو البوادي، ومذ كان، وهو يهدف إلى إعادة استقلال البلاد، ويسعى لاصلاح شؤونها، بما يقوم به من مؤسسات، ويحققه من انجازات في جل الميادين.

ونظراً للطور الجديد الذي دخلت فيه القضية المغربية، بالموقف الذي اتخذه جلالة الملك أثناء رحلته إلى فرنسا، فقد قرر الحزب أن يضاعف الجهود، في التنديد بالوضع الاستعماري القائم في البلاد، وكان مجلس شورى الحكومة ـ

وهي مؤسسة مقيمية تستشيرها الإدارة الفرنسية في الميزانية، والمسائل الاقتصادية البحتة ـ على أهبة عقد دورتها المعتادة لآخر السنة، فوضع أعضاء حزب الاستقلال، ممن يشاركون في أعمال هذا المجلس، تقارير بينوا فيها فساد النظام القائم، وشهروا بأساليب الاستغلال المتبعة في كافة الميادين، واعتمدوا في ذلك على الحقائق والأرقام التي استخلصوها من مستندات الإدارة، وكانت المداولات والتقارير التي جرت أثناء جلسات تلك المؤسسة، تبين استحالة القيام باصلاح كيفما كان أمره في نطاق وضعية الحماية.

ولم يطق المسؤولون في الإدارة الفرنسية هذا التهجم، خصوصاً بعد أن أعوزتهم الحجة للرد على الانتقادات التي كان الأعضاء المنتمون لحزب الاستقلال يوجهونها للإدارة، معتمدين في ذلك على حجج لا تقبل المناقشة، فكان أول رد فعل للمقيم العام، الجنرال جوان، هو طرد السيد أحمد اليزيدي، رئيس جامعة الغرف التجارية والصناعية، والسيد محمد الغزاوي رئيس الغرفة التجارية بفاس، وانسحب بالتبعية لهما، كافة الممثلين للتجار والصناع، أي الذين وقع انتخابهم، كما انضم إليهم بعض العناصر من الغرف الفلاحية، ولم يبق في المجلس سوى الأعضاء المعينين من طرف الحكومة.

وكان لهذا الموقف وقع كبير، سواء في الداخل أو في الخارج، وأصبحت الإدارة الفرنسية في مأزق، حيث تبين للرأي العام الخارجي لأول مرة بصورة جلية، وجود مشكلة مغربية، واتضح أن جلالة الملك الذي يمثل السلطة الشرعية في

البلاد من جهة، والشعب المغربي الذي يعد حزب الاستقلال اللسان المعبر باسمه من جهة أخرى، يريان أن حل هذه المشكلة في استبدال نظام الحماية، وتحرير السيادة المغربية من قيوده، فكان من المتوقع أن تقوم الإدارة برد فعل لتلافي الموقف.

قضية الكَلاوي :

كانت الإدارة إلى غاية السنة الماضية، لا تجادل في نفوذ جلالة الملك، وتعتبره السلطة العليا، والمعبر عن رأي الشعب المغربي، بخلاف حزب الاستقلال فإنها كانت على الدوام تزعم أنه لا يمثل إلا أقلية ضئيلة لا نفوذ لها، فلما بين صاحب الجلالة موقفه من الحماية أثناء رحلته إلى فرنسا، ارتأت الإدارة أن تقوم بأعمال، من شأنها أن تبين للخارج، أن الشعب المغربي غير مؤيد لعاهله في ما طلب، وتبين هذا الاتجاه في الدعاية التي أخذت الصحافة المنتسبة للإدارة تقوم بها.

ولكن أكبر وسيلة التجأت إليها الإدارة لتضليل الرأي العام الخارجي، هي اصطناع ذلك الاقطاعي الكبير الكَلاوي، باشا مدينة مراكش الذي هو ربيب نعمتها. فخلال مقابلة بينه وبين صاحب الجلالة، تطاول الجلاوي على مقام الملك، وعاب على جلالته الانصات إلى تشكيات المتظلمين ممَّن هم في منطقة نفوذه، واشتكى من التهجمات التي تنصب على أعماله من طرف الوطنيين، كل ذلك في غبارة غير لائقة، فأمر صاحب الجلالة، أن يمنع الكَلاوي من العودة إلى القصر الملكي، إلى صدور أمر جديد.

وإن هذه الحادثة بسيطة في حد ذاتها لا تخرج عن نطاق زجر رئيس لمرؤوسه، ولكن الإدارة الفرنسية استغلتها استغلالاً كبيراً لمصلحتها، ولا يبعد أن يكون للحكومة الفرنسية يد في استعمال باشا مراكش، ودفعه لمعارضة صاحب الجلالة، فقد رافق هذا الباشا جلالته في رحلته إلى الديار الفرنسية، وبقي ما يزيد عن شهر بباريس، حيث التقى مراراً بأعضاء الحكومة الفرنسية، ورئيس الجمهورية، و لم يكن أحد من المغاربة يشك في تدبير مؤامرة ضد العرش، ولما عاد الكَلاوي إلى المغرب، نظمت له الإدارة اقتبالات عظيمة، وبالأخص في مدينة مراكش، حيث دخلها في مهرجان شبيه بالمهرجانات التي تقام لصاحب الجلالة، عندما يطوف بحواضر مملكته، واقتبله رجال الإقامة الفرنسية، وفي مقدمتهم المقيم الجنرال جوان، وأوعزوا له بالموقف الذي اتخذه من صاحب الجلالة.

وبعد الحادثة بقليل، نشر مكتب الاستخبارات بالإقامة العامة، رواية محرفة لما دعاه بالنزاع الواقع بين صاحب الجلالة وباشا مراكش، فذكر أن الباشا ندد بحزب الاستقلال وأساليبه، وبين تواطؤه مع الحزب الشيوعي، وانحراف أعضائه عن تعاليم الاسلام، والتقاليد المغربية، وعاب على صاحب الجلالة موقفه منه، وراحت الصحافة الفرنسية في الداخل والخارج ـ بإيعاز من مكتب الاستخبارات ـ تنسج على هذا المنوال، وتظهر باشا مراكش في صورة «المدافع عن الإسلام» وتحليه بمزايا ليس له منها شيء.

فصدر بلاغ من لدن رئيس الحكومة المغربية (الصدر الأعظم)، يفند رواية الصحف، ويبين حقيقة الحادثة، ويرد

الأمور إلى نصابها، ولكن الصحف الفرنسية ـ بإيعاز كذلك ـ نشرت حديثاً للجلاوي، يبين فيه استنكاره لحزب الاستقلال، هو وأغلب رجال الدين، والقواد، والباشوات، ويبدي تعلقه بفرنسا، وقد أحدث هذا التصريح، استنكارا في كافة الأوساط المغربية، وخاصة في وسط العلماء، بكافة المدن والقرى، فأخذت وفودهم تتوافد على القصر الملكي، بعرائض تحمل امضاءاتهم يستنكرون فيها دعوى الكَلاوي، ويبينون مظالمه، وينفون عنه كل صبغة تخوله التكلم باسمهم.

استفزازات وتحرشات :

زادت إدارة الحماية في دعايتها المكشوفة ضد الشعب المغربي ومطامحه، والتهجم على حزب الاستقلال، والصاق أشنع الاتهامات برجاله، والتنديد بأساليبه، وزعمت أن هناك تواطؤا بين هذا الحزب وبين الشيوعية، بينما أخذت صحفها وأبواقها، تشيد بالكَلاوي ومآثره المزعومة وتظهره في صورة زعيم مغربي، يمثل أغلبية الشعب المغربي الراضي ـ حسب دعواها ـ بالحماية الفرنسية. ومن جهة أخرى شرعت في حملة شعواء ضد صاحب الجلالة المعظم، فنالت من كرامته نيلا عظيما، وأخذت تقنع الرأي العام الخارجي بالخصوص، أنه لا يعبر عن رأي الشعب المغربي، وحاولت التفرقة بين عنصري هذا الشعب العربي منه والبربري، زاعمة أن البربر كلهم أوفياء لفرنسا، راضون بسيطرتها.

ومضت الإدارة في خطتها هذه، فأخذ المراقبون الفرنسيون، يجمعون القواد (الحكام المغاربة في البادية)

ويفرضون عليهم تأييد الكَلاوي في حركته العدوانية، ومن أبدى منهم أدنى معارضة، هدد في نفسه وماله، ونظمت الإدارة حفلات في بعض المراكز البدوية واستقدمت إليها الكَلاوي والزمت القواد باظهار تضامنهم معه.

وزيادة على الدعاية المسمومة التي كانت تقوم بها ضد جلالة الملك من جهة، وحزب الاستقلال من جهة أخرى، فقد قامت بحملة جديدة من حرب الأعصاب، للتأثير على القصر الملكي، وادخال الرعب في أفئدة المغاربة من جهة أخرى، فكانت الصحف تصدر في كل يوم، بأخبار عن احتمال تنازل صاحب الجلالة على العرش، لمرض ألم بصحة جلالته الغالية، ودأبت الصحافة على هذا المنوال، تحوك الأساطير، وتسترسل في التخمينات، عمن سيخلف جلالته على العرش، وذهبت بعضها إلى ضرورة اقصاء العائلة المالكة، واحتملت بعضها أن يتولى الكَلاوي، إلى غير ذلك من الادعاءات التي يقصد منها الفتّ في عضد الشعب المغربي، وادخال الرعب في النفوس، والتأثير على القصر، واستمرت الصحف تضرب على هذا الوتر، وتنعت جلالة الملك بأشنع الأوصاف، إلا طائفة قليلة من الجرائد الفرنسية، التي كانت تتحرى في لهجتها، وتبين الوضع السياسي، والمشكلة المغربية على حقيقتها.

وقد كان لهذه التهجمات استياء عميق في كافة الأوساط المغربية، ولولا أن حزب الاستقلال، كان يدعو الناس إلى الهدوء، وعدم الانسياق إلى العنف، بسبب هذه التحرشات، لوقعت حوادث خطيرة.

من الاستفزاز إلى التهديد :

وساءت العلاقات بين القصر والإقامة العامة، فكانت جميع الأخبار التي تروي عن المحادثات بين جلالة الملك، وبين المقيم العام الجنرال جوان في هذه المدة، تشعر بتوتر كبير بين الجانبين، وقد بلغ هذا التوتر حده الأقصى، في المقابلة التي جرت بينهما يوم 26 يناير، قبيل سفر الجنرال جوان إلى باريس، حيث أخذ الطائرة في رفقة م. روني بليفن، إلى واشنطون، و لم يعد خافياً على أحد، ما جرى بين العاهل المغربي، والمقيم الفرنسي بدقة، بعد ما نشرته أمهات الصحف الفرنسية بباريس، نقلاً عن مبعوثين خاصين، أرسلتهم لاستطلاع حقيقة الأمر، وفيما يلي نلخص أهم ما جرى خلال هذه المقابلة التاريخية.

دخل الجنرال جوان في اليوم المذكور، في حالة غضب على جلالة الملك، وحمل حملة شعواء على حزب الاستقلال، وندد بأساليبه، وذكر أنه حزب يعادي فرنسا، وأنه هو السبب في كل ما وقع، وفي الموقف الذي اتخذه الكَلاوي وغيره من القواد، وأن القبائل في حالة عظيمة من الهيجان، ومن المحتمل أن ينزل فرسانها إلى المدن، ويمعنوا سبياً وتقتيلاً في أهلها، ثم بعد ذلك طلب من صاحب الجلالة، أن يعلن تبرؤه من هذا الحزب، في بلاغ علني، فأجابه صاحب الجلالة، بأنه لا يستطيع الإقدام على مثل هذا العمل، لأنه فوق الأحزاب، بصفته ملك البلاد، والتبرؤ من حزب الاستقلال، معناه اتخاذ موقف ضد طائفة من الشعب، إلى جانب طائفة أخرى، وهذا

ما لا يمكن، وذكر جلالته أن هناك محاكم، في استطاعتها أن تنظر في وسائل الذين يخرجون عن نطاق القانون من أعضاء هذا الحزب وغيرهم، وتحكم عليهم إن ثبتت إدانتهم.

ولكن الجنرال جوان لم يقتنع بجواب جلالة الملك، وهدده بلهجة حادة قائلاً : هذا شيء غير مقبول، فإما أن تعلنوا تبرئتكم من حزب الاستقلال علانية، وإما أن تتنازلوا عن العرش، وإلا فسأخلعكم، وها أني ذاهب الآن إلى الولايات المتحدة، وفي وسعكم أن تفكروا في عمل ما طلبت منكم. وسنرى ما نفعل عند العودة.

في هذا الجو من التهديد والتوتر، جرت المقابلة مع جلالة الملك، وكانت المحادثة تخرق جدران القاعة، فتنتهي إلى سمع من هم خارجها، وبعد هذه المقابلة، وقع تطويق أبواب القصر كلها، بالشرطة يراقبون حركات الواردين إليه والخارجين منه.

ومالبث الشعب المغربي أن سمع بالتهديد الواقع على شخص ملكه المفدى، وانتشرت شتى الإشاعات، وزاد فيها، ما كانت الصحف الفرنسية التي تخدم مصلحة الإدارة الاستعمارية تنشر كل يوم، تارة حول احتمال تنازل صاحب الجلالة، وطوراً حول استبدال جلالته بملك جديد، وفضحت بعض الصحف في الخارج، ما جرى أثناء المقابلة بين جلالة الملك، والجنرال جوان، و لم يبق أحد من الرعايا المغاربة إلا وشعر بالخطر العظيم الذي يهدد رمز الوحدة والسيادة، وبلغ السخط مبلغاً عظيماً في كل الجهات، ولولا

أن حزب الاستقلال، كان يكرر نداءاته لشُعَبِه وفُروعه بلزوم الهدوء، لانتشرت الفوضى، وتقدمت الجماهير إلى التضحية، ولتعذر إرجاع الأمن والطمأنينة، ولا غرابة، فإن الشعب المغربي شديد التعلق بملكه، قوي التمسك بعرشه، ولطالما أعرب عن هذه العاطفة.

تثبيت مركز جلالة الملك :

وقام حزب الاستقلال بحركة قوية في الخارج، لدرء الخطر عن شخص صاحب الجلالة، فشهر بتهديد المقيم العام في أغلب جهات المعمور. واستنجد رجال الحزب خاصة، بملوك العرب ورؤسائهم، وبالحكومات والجامعة العربية، وبذلوا مجهوداً جباراً في فضح نوايا الإدارة الفرنسية نحو العرش المغربي، وصاحبه، وحيال الحركة الاستقلالية، والمطامح المغربية بوجه عام، ورددت صدى هذه المؤامرة الاستعمارية، صحف الخارج، وعلقت عليها مبينة خطورتها، وصرح معالي عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام للجامعة العربية معلناً تأييد الجامعة لمطامح الشعب المغربي، ومنددا بالاستعمار الفرنسي ومناوراته.

أمام هذا الوضع الذي كان يفضح تهديدات الجنرال جوان، أصدرت وكالة الأنباء الفرنسية من الرباط، بلاغاً شبيهاً بالرسمي، من الإقامة العامة، كذبت فيه بعبارات ملتوية، أن الجنرال جوان طلب من صاحب الجلالة التنازل عن العرش، أو هدده بالخلع، وأضافت الوكالة أنه إنما طلب منه أن يعلن تبرؤه من أساليب حزب الاستقلال.

وكان هذا أول تراجع من طرف الإدارة.

وفي يوم 2 يبراير، وقع استجواب وزير الخارجية الفرنسية م. رونير شومان، من طرف عضوين في لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب، فلما سئل الوزير عن التهديد الذي فاه به الجنرال جوان، اجتنب الإجابة عن هذا السؤال، وذكر أن فرنسا لا تتحدث إلا مع شخص واحد في المغرب، وهو جلالة السلطان، وأثنى على جلالته، ذاكرا أنه أسدى أجل الخدمات إلى فرنسا في أيام محنتها، ومازال يفعل، ومن الواجب أن تنتهي كل حملة ضد شخصه.

ونظراً للسكوت الذي لزمه الوزير بخصوص التهديد، وعدم نفيه له، ترجح أن الحكومة الفرنسية كانت مطلعة على برنامج المقيم العام، إن لم تكن توافقه عليه، وقد كان البعض في الداخل، يظنون أن الجنرال جوان، إنما أقدم على التهديد من تلقاء نفسه، وأراد أن يجعل حكومته أمام الأمر الواقع، أما الدوافع التي حملت وزير الخارجية إلى الافضاء بذلك التصريح، فيدخل فيها الضجة التي أحدثها فضح المؤامرة بدون شك، ولا يبعد أن تكون هناك تدخلات سرية.

ومهما يكن فقد ساعد هذا التصريح، على إعادة الاطمئنان إلى النفوس، من ناحية ثبوت مركز صاحب الجلالة المعظم؛ وبدد المخاوف التي كانت تساور المغاربة على عاهلهم، وأصبحوا يتساءلون عن موقف الجنرال جوان، عند عودته من الولايات المتحدة.

الضغط على الملك والوزارة :

انتهى الطور الأول من النزاع بين القصر والإقامة، بتصريح شومان وزير خارجية فرنسا. وعاد الجنرال جوان يوم 8 فبراير من واشنطون إلى باريس، وظل بها ثلاثة أيام، تحادث خلالها مع حكومته، وخاصة مع وزير الخارجية، وغداة رجوعه إلى الرباط استدعى ولي العهد مولاي الحسن، إلى الإقامة العامة، ويقال إنه تحادث معه في جو ودي، ذاكراً أنه لم يخطر في باله أبداً أن يطلب تنازل صاحب الجلالة عن العرش.

ومن المفيد أن نذكر أن الصحافة المنتمية إلى الإقامة العامة، لم تضع حداً للحملة التي كانت تشنها في آن واحد، ضد جلالة الملك، وحزب الاستقلال، مما يبين إصرار الدوائر المقيمية على موقفها.

وفي يوم 12 فبراير اقتبل جلالة الملك المقيم العام، وعرف من بعد أن هذا الأخير، طلب من جلالته استبدال بعض أعضاء الديوان الملكي بغيرهم، حسماً للنزاع، ومُذ كان هؤلاء الأعضاء وهم هدف انتقاد الأوساط الاستعمارية، التي ترى فيهم أفراداً منخرطين في حزب الاستقلال، ويعملون لاحباط مشاريعها، ورغبة من صاحب الجلالة في وضع حد للتوتر الحاصل بين القصر والإقامة، قبل أن يحل الديوان بأجمعه، ووقع الاتفاق بين الطرفين، واعتبرا النزاع محسوماً.

ولكن في اليوم الموالي بالضبط، 13 فبراير، على إثر مقابلة بين الجنرال جوان، وبعض كبار الموظفين الفرنسيين، وجه

الأول إلى صاحب الجلالة مستشار الحكومة المغربية م. ذو كلوزيل، بلائحة يلزمه فيها بالتنديد علانية بحزب الاستقلال، وإقصاء بعض كبار الوزراء والموظفين بالقصر وغيره، وتعيين قواد (حكام مغاربة) ممَّن سبق للقصر أن رفض تسميتهم لأسباب، منها عدم أهليتهم، وشهرتهم بخدمة الاستعمار، وألزم جلالته كذلك بتوقيع الظهائر التي كان يعارض فيها، إما لمساسها بالسيادة المغربية، كظهير البلديات، يعطي الحق في الانتخاب للجالية الفرنسية، أو لضررها بمصلحة البلاد وعدم كفالتها لحقوق الرعايا المغاربة، كنظام العدلية، ونظام المعادن، والحق النقابي، فرفض جلالة الملك إجابة طلب المقيم العام، وواعد بالنظر.

وفي الغد عقد جلالته مجلساً وزاريا، أضاف إليه عالمين من كبار العلماء، وعرض عليه مقترحات الإقامة العامة، طالباً منه أن يدرسه بتدبر، ويرى فيه بعين المصلحة، غير متأثر بتأثير خارجي، ووكل الوزراء والعلماء إلى ضمائرهم.

ونشرت الصحافة الفرنسية، سواء في الداخل، أو الخارج، أن المحادثات بين القصر والإقامة، موصولة دون أن تضع حدّاً لتهجماتها العنيفة على العرش، وحزب الاستقلال، بل زادت تلك التهجمات حدة، حيث أخذت الإدارة تصطنع أشخاصاً وهيآت معروفة بولائها للاستعمار الفرنسي، والاستفادة من الوضع القائم، لاعلان تنديدها بحزب الاستقلال ووسائله، وتشبتها بفرنسا، وكل ذلك للتأثير على المجلس الوزاري، الذي كان منعقداً لدراسة المقترحات المقيمية،

وإحداث إجماع ضد الحركة الوطنية، لتيسير حركة القمع التي بيتتها الإقامة ضدها.

وكان التنديد بحزب الاستقلال، هو الموضوع الذي شغل المجلس الوزاري، خلال الجلسة الأولى، فكان اجماع الأعضاء على عدم التنديد بطائفة من الشعب المغربي، وحرر المجلس بلاغاً يدعو فيه إلى الهدوء، ويشير إلى العلاقات الفرنسية المغربية ولحذر من الأمور التي من شأنها أن تؤثر تأثيراً سيئا على تلك العلاقات، وقدم المشروع بعد موافقة صاحب الجلالة على الإقامة العامة، فرفضه المقيم، وطلب زيادة على البلاغ الملكي في التنديد بحزب الاستقلال، تصريحاً وزارياً في إعلان «إلْحَاد» أعضاء حزب الاستقلال، بإضافة المقترحات السابقة التي قدمتها الإقامة.

وانعقدت الوزارة من جديد، وحررت مشروعاً آخر، دون أن تستجيب لرغبة الإقامة، فرفض المشروع الثاني.

قطع ما يسمى بالمذاكرات :

وفي 20 يناير استدعى المقيم العام، الهيئة الوزارية للإقامة، وتركهم ببابه ساعة ونصف ساعة ينتظرون، ثم اقتبلهم عند الباب بلهجة حادة، وعنفهم تعنيفاً شديداً على عدم الموافقة على ما طلب منهم، فلاحظ بعضهم هذا السلوك الذي لا يليق، والذي لم يكن جاريا به العمل بين القصر والإقامة، ولكن المقيم قاطعهم بوجوب التنديد بحزب الاستقلال، وإذا لم يفعلوا فإن القبائل البربرية تنتظر الإشعار، لتنقض على المدن، وتقتل

أهلها، وتسبيهم، وحينئذ تأتون إلي، وتطلبون مني أن أحميكم. ولن أفعل، فلسنا ملزمون إلا بحماية السلطان، وقد قلت له ذلك، ثم تعرض المقيم إلى حزب الاستقلال من جديد، وواعد الهيئة الوزارية بأنه لن يتخذ من تصريحها ذريعة لقمع أعضائه.

وانصرف الوزراء، وعقدوا اجتماعات جديدة، وقرروا البقاء في موقفهم، وكان الجنرال جوان، قد ذهب إلى فكيكَ لحضور مؤتمر للحدود، شارك فيه ممثلو فرنسا في بعض الأقطار الافريقية، وبلغ المجلس الوزاري قراره إلى المعتمد بالإقامة العامة م. دو بليسون، يوم 22 فبراير، فأجابهم على لسان مستشار الحكومة المغربية، بأن المذاكرات قد انقطعت، وانقطعت العلائق كذلك بين القصر والإقامة العامة، ما عدى في المسائل الإدارية المحضة.

وفي ليلة نفس اليوم، أذاعت المحطات الفرنسية، انقطاع العلاقات بين الجانبين، معللة ذلك بإصرار المجلس الوزاري على موقفه في عدم استنكار حزب الاستقلال، وصدرت الصحف الفرنسية صباح الغد، بعناوين بارزة، وتعاليق مسهبة، عن ظروف الحادثة وأسبابها، كما جددت الحملة على حزب الاستقلال وأساليبه، وعلى جلالة الملك.

وإلى جانب ذلك، أفردت أعمدة طويلة لما سمته بمظاهرات تأييد المقيم العام، واستنكار حزب الاستقلال، تلك المظاهرات المزورة، أو التي أقامتها تحت تأثير الضغط.

وفي العشي نشرت صحيفة فرنسية خبراً، مضمنه أن موفداً من وزارة الخارجية الفرنسية، سيقدم إلى المغرب، ولكن

هذا الخبر ما فتئ أن وقع تكذيبه، كما أعلن أن الجنرال جوان استدعي إلى باريس، للإدلاء بتقرير إلى حكومته عن الحالة، وسيرحل إليها بطريق الجو يوم 24 فبراير، ولكن بعد قليل، أعلن رسمياً بأن المعتمد بالإقامة العامة م. دوبليسون، هو الذي سيتوجه إلى فرنسا، لتقديم تقرير إلى وزارة الخارجية عن الموقف السياسي بالمغرب.

وتحقق بعد ذلك، أن المقيم العام الجنرال جوان، رفض نهائياً أن يأتي موفد من قبل وزارة الخارجية الفرنسية، لبحث الحالة، كما رفض أن يذهب إلى باريس بنفسه، متعللاً بتطور الحالة في المغرب.

الجنرال ينذر حكومته، وجلالة الملك يطلب وساطتها :

ولكنه وجه المعتمد بمهمة محدودة، هي أشبه شيء بانذار : فقد طلب منها أن تقره على السلوك الذي نهجه حيال جلالة الملك، وأن تترك له الحرية المطلقة في خلع جلالته، وترحيله هو وعائلته، إذا رفض مرة أخرى الإذعان إلى مطالبه، وأنذر الحكومة الفرنسية في حالة رفضها، أن يستعفى من وظيفه بالإقامة العامة، ومن مهامه العسكرية الحالية والمقبلة.

وفي نفس الحين، وجه جلالة الملك وزيره المفوض بباريس، السيد قدور بن غبريط، إلى الحكومة الفرنسية، بتقرير عن تطور الحالة في المغرب، والجهود الكثيرة التي بذلها لحسم النزاع، وطلب جلالته من الحكومة الفرنسية وساطتها.

وقابل المعتمد أعضاء الحكومة الفرنسية ورئيس الجمهورية، وانعقد مجلس وزاري مصغر، ووقع خلاف في الرأي بين الأعضاء، ولكن الحكومة من الضعف، بحيث لم تستطع أن تصمد في وجه الانذار الذي وجهه إليها الجنرال جوان، وأخيرا حرر رئيس الجمهورية الفرنسية م. فانسان أوريول، خطاباً شخصياً إلى صاحب الجلالة، سلمه إلى المعتمد بالإقامة العامة. وهذا الخطاب حسب ما روته المصادر المقيمية، وما أكدته غيرها من المصادر المطلعة، يحتوي على تأييد الجنرال جوان في موقفه من القصر، ووضع كامل الثقة فيه، كما يحث جلالة الملك، على تلبية رغبات المقيم العام، و لم تجب الحكومة الفرنسية عن الطلب الذي قدمه صاحب الجلالة بشأن وساطتها.

حل الديوان الملكي من قبل المقيم :

بعد قطع العلائق بين القصر الملكي والإقامة العامة، عاد الجنرال جوان من مؤتمر الحدود الذي أومأنا إليه، وفي يوم 24 فبراير استدعي السيد محمد المعمري إلى الإقامة العامة، وبلغه أحد الموظفين هناك، أمر الجنرال جوان بحل الديوان الملكي، وتعيين أعضائه في وظائف صغرى بمختلف المدن المغربية. كما بلغه أمر الجنرال، بعزل مدير جامعة القرويين من منصبه، وتعيينه في وظيف آخر، وكذلك عزل أحد كبار قضاة محكمة الاستيناف، وعين بوظيف صغير في الدارالبيضاء، وأعطى لهؤلاء الأمر، بالالتحاق بوظائفهم الجديدة، في مدة ثمانية أيام، وإلا اعتبروا منفصلين عن الوظيف.

وصدرت الصحافة الفرنسية صباح اليوم التالي، بخبر «موافقة جلالة الملك» على حل ديوانه الخاص، ومن ذلك التاريخ، وبإجراء من طرف الإقامة العامة وحدها، انفصل أعضاء الديوان الملكي عن أعمالهم.

الارهاب والاكراه :

عاد م. دوبلسيون المعتمد بالإقامة العامة إلى الرباط، يحمل رسالة رئيس الجمهورية الفرنسية، وبات الناس ينتظرون ما ستتمخض عنه الأحداث. وكانت الحالة بالغة الحد الأقصى من التوتر، بما كانت تفشيه الصحف الفرنسية المتصلة بالإقامة، من أخبار المظاهرات العدائية لحزب الاستقلال، والتعلق بالإقامة العامة، وفرنسا، تلك المظاهرات التي كان يتخيلها أعوان الإدارة أو يدبرونها. وزاد في توتر الجو، ما أمرت به سلطات المراقبة فرسان القبائل، بامتطاء صهوة جيادهم، والسير نحو المدن، والنزول في أرباضها، دون أن تشعرهم بموجب هذه الحركة، بينما أخذت تنشر تلك الصحافة، بأن القبائل الهائجة، وسكان الجبال، نزلوا من مساكنهم للاجهاز على سكان المدن، وأن الإدارة الفرنسية اتخذت الاحتياط، فعبأت قوات جيشها لحماية الحواضر، وهكذا نزلت قوات وافرة العدد من الفرسان، والجيوش، بضواحي فاس، والرباط، تنتظر صدور الأمر لها من طرف الإدارة.

وكان القصر الملكي، وكذلك مقر ولي عهد المملكة المغربية، محاطين بالجيوش الفرنسية، بدعوى حماية العائلة المالكة، وما ذلك إلا تضليل.

هـذا مـن جـهـة، ومـن جـهـة أخـرى، كـانت الاتصـالات مستمرة بين الإقامة العامة، وبين الكلاوي باشا مراكش، فكانت تدبر مؤامرة بين الطرفين، وقد تحقق أن هذا الإقطاعي، كان بالإقامة العامة ليلة 25 فبراير، وهو اليوم الذي وقع فيه جلالة الملك الاتفاقية تحت الضغط والاكراه، كما سيرد علينا، وسنفصل القول في المؤامرة التي وقع تدبيرها، لخلع جلالة الملك في حالة رفضه التوقيع.

في هذا الجو المرعب، توجه م. دوبليسون إلى القصر الملكي، صباح يوم الأحد 25 فبراير، وناول رسالة رئيس الجمهورية الفرنسية، إلى جلالة الملك، وأبلغه رأي حكومته، فوقعت بينهما مذاكرة عنيفة، وبمجرد خروج المعتمد بالإقامة العـامـة مـن الـقـصـر الـمـلـكـي، اسـتـدعى جلالة الملك المجلس الوزاري للانعقاد، فابلغه نص كتاب رئيس الجمهورية، ورأى الحكومة الفرنسية، ومقترحات الإقامة العامة. وظل المجلس منعقداً إلى ساعة متأخرة بعد الزوال، دون أن يستجيب لتهديد الإقامة العامة.

وعند الساعة السادسة سلمت الإقامة العامة إلى السيد محمد المعمري، رئيس التشريفات الملكية، مشروع اتفاق ليمضيه جلالة الملك، مع انذار شفوي عن لسان المقيم العام، جاء فيه أن هذا الاتفاق ينبغي أن يوقع في ظرف ساعتين، فإذا لم يوقعه صاحب الجلالة في هذه المدة، فيمكنه ألا يعتبر نفسه ملكاً على البلاد.

وعلى الساعة الثامنة ونصف، قدم م. دوكلوزيد، مستشار الحكومة المغربية، وبمعيته ضباط فرنسيون مسلحون، بقوا في انتظاره على عتبة قاعة العرش، ودخل على صاحب الجلالة، وطالبه بالاتفاق موقعاً، فخاطبه صاحب الجلالة بشمم، انه يوقع الاتفاق تحت تأثير الارهاب والاكراه، حقناً لدماء رعيته، وان مثل هذه الاتفاقات التي توقع تحت الاكراه لا عمل بها، ووضع جلالته في نهاية الاتفاق المزعوم كلمتي : صار بالبال.

أما الاتفاق فيحتوي على ثلاث نقط : صدور بلاغ ملكي، وتصريح لدولة الصدر الأعظم، في التنديد بحزب الاستقلال ؛ إدخال تغييرات على الحكومة المغربية، تعيين قواد جدد، دراسة مشاريع «الاصلاحات» ـ من طرف أعضاء الحكومة المغربية ـ التي كانت موقوفة، لعدم حصول الاتفاق بين القصر والإقامة في شأنها.

وقد أذيع في نفس الليلة، كل من بلاغ صاحب الجلالة المعظم، وتصريح رئيس الوزارة، كما خرجت بعد ثلاثة أيام التغييرات في الوزارة المغربية، وتعيينات القواد الجدد، وجل الذين أسندت إليهم الوظائف الجديدة من صنائع الإدارة، الذين ما انفكوا يلحقون أكبرالضرر بالشعب المغربي، وقد أقصى الوزراء والمندوبون الذين وقفوا في وجه الإدارة، وامتنعوا من الموافقة على ما طلبت إليهم من التنديد بحزب الاستقلال، وأصبحت الصحف الفرنسية قاطبة، تذكر الاتفاق الذي حصل بين جلالة الملك والإقامة العامة، وتشير إلى استنكار الصدر الأعظم لحزب الاستقلال ووسائله.

لو لم يوقع جلالة الملك..

ذكرنا بكثير من الاختصار، جو الإرهاب الذي كان مخيماً على القصر الملكي، والبلاد عموماً في يوم 25 فبراير بالأخص، وأتينا على الانذار بالخلع، الذي هدد به الجنرال جوان جلالة الملك أولاً يوم 26 يناير، وثانيا يوم 25 فبراير، واتضح لنا أن المقيم العام، قد نال موافقة الحكومة الفرنسية على سلوكه، فلم يبق شك أبداً في أنه كان عازماً على خلع جلالة الملك وترحيله، إذا امتنع يوم 25 فبراير من توقيع «الاتفاق» الذي عرض عليه.

وقد اتخذ لهذه المكيدة عدتها، فعبأ الجيوش الفرنسية، وسير فرسان القبائل، وحاصر القصر الملكي، وأهم الحواضر المغربية، وكانت جميع قوات البوليس على قدم وساق، وأعطى الأمر للذين هم في الإجازة بالالتحاق بمقر وظائفهم، وكانت الثكنات مملوءة بالجنود ورجال «القوم».

فلو رفض جلالة الملك التوقيع على الاتفاق المزعوم، لذهب الجنرال جوان إلى أقصى حد ممكن، ونفذ البرنامج الذي أعده لهذه المناسبة، وهو خلع جلالته، وقد هيأ الجنرال طائرته الخاصة، لترحيل صاحب الجلالة، وعائلته الملكية، إلى مكان مجهول في نفس الليلة. وكان من المقرر أن يلقي القبض في الحين على زعماء حزب الاستقلال، ومسيريه في جميع الجهات، وأن تحتل المدن، وتعلن بها حالة الطوارئ، لمنع حدوث أي اضطراب، أو رد فعل من طرف الشعب، وفي آن واحد، تقع بيعة ملك جديد، وقع اختياره من قبل.

وقد تمت هذه المؤامرة مع الكَلاوي كما أسلفنا، وكان بالإقامة في ليلة الاتفاق، ووضعت الإدارة رهن إشارته، سيارات نقل حجزتها من يد أصحابها، ليملأها بأعوانه، ورجاله الأوفياء له، واتخذوا طريقهم نحو فاس، وكان من المقرر أن تطلق لهم ولرجال البربر، اليد في أهل فاس، ليقتلوا وينهبوا، كما كان من المقرر، أن يجمع العلماء، ويحاصروا، حتى توخذ منهم البيعة للملك الجديد، ومن أبى منهم عذب واضطهد، إلى أن يعطي بيعته، وقد كان المرشح لاعتلاء العرش، هو مولاي عرفة ابن مولاي المامون، عم صاحب الجلالة، وخليفته السابق بفاس، وكان الكَلاوي يميل إليه، ومن بين المرشحين كذلك، مولاي إدريس، شقيق صاحب الجلالة، ومولاي يونس، نجل المولى عبد الحفيظ الملك الأسبق.

وبعدما وقع صاحب الجلالة «الاتفاق»، أعطى الأمر بوقف هذه المؤامرة، وأشير إلى فرسان القبائل، بالرجوع إلى مراكزها، وأعلن أن الاتفاق حصل بين القصر والإقامة من جديد.

اضطهاد حزب الاستقلال :

كان متوقعاً بعدما نال الفرنسيون مرغوبهم تحت الضغط والاكراه، أن ينتقموا من زعماء حزب الاستقلال وأعضائه، و لم تخف الحملة التي شنتها الصحافة المأجورة، على الحركة الوطنية لحد الآن، وفعلاً بعد يومين من صدور البلاغ الملكي، وقع اعتقال أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، الأساتذة محمد اليزيدي، الحاج عمر بن عبد الجليل، محمد غازي، عبد الكريم ابن

جلون، ونفي الأستاذ المهدي بن بركة، كاتب اللجنة التنفيذية إلى معتقل بجنوب الأطلس، بتهمة تحرير وإذاعة المناشير بدون إذن.

وفي الحين صدر نداء، كانت اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، أعدته قبل اعتقالها، تطلب فيه من الشعب المغربي، أن يلزم الهدوء، ولا يبدي أدنى رد فعل، وذلك رغبة منها في حقن الدماء.

وهذا هو السر في عدم وقوع اضطرابات وقلاقل بالمغرب، ويتجلى مما سبق، أن كلاً من موقف صاحب الجلالة المعظم بتوقيع «الاتفاق»، المعروض عليه، وموقف الحزب، بدعوة الناس إلى الهدوء، هما اللذان كانا السبب في تهدئة الناس، رغم فورة عواطفهم.

ومع ذلك فإن الإدارة وأعوانها الاقطاعيين، وصنائعهم، ماانفكوا يضطهدون أعضاء حزب الاستقلال في جميع الجهات، ويعذبونهم، وينكلون بهم، ولازالوا يرغمون أهل البوادي، بالتبرؤ من جلالة الملك، وحزب الاستقلال، فيرفضون ويقع اعتقال المآت منهم، وقد غصت السجون بآلاف المعتقلين، وخصوصاً بالنواحي التي يسيطر عليها الكَلاوي.

خـــتـــــام :

في هذا الجو من الرعب، يعيش المغرب اليوم، وتحاول الإدارة الفرنسية بجميع الوسائل، أن تبين أن الهدوء سائد، وتسعى لاسدال ستار النسيان عن الحوادث الخطيرة التي وقعت

في الأيام الأخيرة، وخاصة على الضغط الذي وقع على جلالة الملك، وقد أرهبها موقف التأييد الذي وقفت الحكومات، وجامعة الدول العربية، والأمم الإسلامية، في مناصرة القضية المغربية، وأصبحت في موقف المدافع عن نفسها.

أما الشعب المغربي فما يزال ثابتاً في مبدئه، متحمساً من أجله، وهو على أحر من الجمر، مستعد على الدوام، للسعي وراء استقلاله، والعمل على التحرر من ربقة الاستعمار الغاشم.

انتهى التقرير الذي حرره المرحوم قاسم الزهيري وهو عندي بخط يده، مكتوب ومحرر في ذلك الظرف الذي كانت فيه الأحداث.

كلمة ختامية

هذا ما تيسر لي جمعه وإصداره في هذا الكتيب عن المرحوم بكرم الله الأستاذ قاسم الزهيري.

ولقد قصدت بالتعريف بشخصيته، وبنشر المراسلات التي كانت بيني وبينه خلال تطورات حياته، سواء وهو في عهد الشباب، أو الكهولة أو الشيخوخة، أن أوضح للأجيال الجديدة، أن الرعيل الأول من الوطنيين الأحرار، ومنهم قاسم الزهيري، لم يعتبروا الوطنية كمجرد وسام، أو مجرد شعار، أو مجرد انتماء، ولكنها كانت التزاماً صادقاً، عاشوا به طوال حياتهم، مهما طالت وامتدت، وأن قضية الاهتمام بوطنهم والنضال في سبيل عزته وكرامته، والحفاظ على كيانه وقيمه ومقوماته وسيادته، كانت شغلهم الشاغل، وهدفهم الاول في الحياة، فمهما كانت ظروفهم الحياتية، سواء في المجال الحر الشعبي، أو في مجال تحمل بعض المسؤوليات السياسية أو غير السياسية، فهم وطنيون ملتزمون بخدمة وطنهم، والدفاع عن حوزته وقدسيته.

والاطلاع على بعض الرسائل التي تلقيتها منه، وهو متحمل لبعض المسؤوليات كالسفارة أو غيرها، تؤكد أن الرجل وقد أنيطت به بعض المسؤوليات، لم تغب عنه في تلك

الظروف التطورات والأحداث التي تقع ببلاده، فهو يتتبعها باهتمام، ويشارك فيها بعناية، ويريد أن لا تُزيغ تلك الأحداث الفكر الوطني السليم، الحريص دائما على الوحدة الوطنية الرشيدة التي هي وحدها طريق النجاح، وتحقيق الأماني التي يتطلع إليها الشعب والعرش متكاثفين.

إن في حياة المرحوم قاسم الزهيري، عبرة لمن يريد أن يعتبر، وهو أسوة لمن يريد أن يقتدي ويهتدي، و﴿إن في ذلك لذِكْرَى لمن كَان لَهُ قلبٌ أو ألقى السَّمْع وهُو شَهيدٌ﴾.

يوجد من بين ما جاء في هذا الكتيب، مقال طويل حرره قاسم الزهيري تعليقا أو تقريظا لكتاب كنت أهديته له بعد صدوره، عن شيخ المشايخ الصوفي السلفي عبد القادر الجيلاني، ولقد قررت إثباته مع ما كتبته عنه لأمرين اثنين : (1) لأنه أضاف للمعلومات التي جاءت في الكتاب، معلومات أخرى تتعلق بالشيخ عبد القادر الجيلاني، وانتشار دعوته حتى في أروبا التي لم أشر إليها فيما كتبت، ولأن كثيراً من الأجانب كتبوا عنه الصفحات الطوال أشار إليها بعدما اطلع عليها، (2) ولأنه برهن بما كتبه على أن اهتماماته الثقافية والدينية، لم تكن محصورة في جانب واحد، بل كانت تشمل جانب الغيب وجانب الشهادة، كما كان يعبر عن ذلك المرحوم الدكتور المهدي بن اعبود.

أما التقرير المتعلق بما أسماه (الأزمة المغربية : أسبابها وتطوراتها) والذي تحدث فيه عن فترة سياسية دقيقة عاشها

المغرب، وتابعها هو بنفسه، فكان تقريرا وافيا عن الأحداث وعن تلك الأزمة، يُفيد القارئ الباحث الذي يريد أن يعرف حقائق الأشياء وملابساتها وما نتج عنها، خصوصاً وقد صار البعض يتحدثون بما لا يعرفون، أو يلبسون الحق بالباطل وهم يعلمون.

رحم الله الصديق الرفيق قاسم الزهيري، وحشره في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

شاطئ تمارة في 11 شعبان 1426
الموافق 16 سبتمبر 2005
أبو بكر القادري

فهرس الكتاب

قاسم الزهيري كما عرفته 5

ولادته 6

أسرته 8

نشاطه الوطني والإسلامي 10

قاسم الزهيري في السجن وهو في سن 16 10

وظائفه 18

قاسم الزهيري ككاتب وصحفي ومثقف 26

مراسلاته 30

ملاحق 47

رسائل إلى أبنائي 143

حول كتاب الشيخ عبد القادر الجيلاني 163

الأزمة المغربية : أسبابها وتطوراتها 171

كلمة ختامية 196

هذا الكتاب

الأمة التي لا تتعرف على رجالاتها وصادقيها، لا تعرف تاريخها وحضارتها وقيمها، والمغرب لم يفقد في تاريخه كلّه، ابتداء من عهد إدريس الأول، إلى محمد الخامس، رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكافحوا الكفاح المرير، ليبقى محافظا على حريته وكيانه وعقيدته، السنوات تلو السنوات، والعقود إثر العقود، وفي العهد الذي تآمر على المغرب المتآمرون من مختلف الأجناس، وفي طليعتهم : الفرنسيون والإسبانيون، بعث الله رجالا في الريف، والأطلس الكبير والصغير، في طليعتهم البطل الخالد الذكر، محمد بن عبد الكريم الخطابي، حملوا راية المقاومة المسلحة، دفاعا عن ترابهم، ووفاء لعقيدتهم، وتضحية في سبيل عزتهم وكرامتهم، وأوائل الثلاثين من القرن العشرين، برز إلى الميدان جماعات وطنية في مختلف المدن المغربية، قاوموا السياسة الاستعمارية بكل ما يملكون من قوة إيمانية. ورسالة تحريرية، ووضحوا الطريق، ووضعوا برامج العمل للتقدم، وبناء المستقبل السعيد المنشود.

كانت تلك الجماعة الأولى قليلة العدد، ولكنها قوية في العزيمة، والإرادة، فلم يلبث أن تكاثرعددها، وتزايدت جماعاتها، وصار الأبناء يحتاذون الآباء، والشباب يتابعون من سبقهم من الكهول، وهكذا بقيت السلسلة متتابعة، واللاحقون يمسكون بيد السابقين الأولين، فظهر في الميدان الوطني المكافح، أمثال علال الفاسي وأحمد بلافريج ومحمد اليزيدي والفقيه غازي ومحمد بن الحسن الوزاني وعبد العزيز بن إدريس، ثم أتى من بعدهم أمثال عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة وعبد الكبير بن المهدي الفاسي والحسن بن شقرون والمهدي بن اعبود وغيرهم من الأحرار. وكان من جملة الأخيرين المرحوم قاسم الزهيري الذي أُصدر عنه هذا الكتاب. لقد كان قاسم الزهيري من هذا الرعيل الوطني الثاني بجانب عبد الرحيم بوعبيد رحمه الله، عرفته شابا في عنفوان الشباب، وكهلا من الكهول، وشيخا في مفتتح الشيخوخة الظالمة - كما قال الأخ غلاب - عرفته شابا وطنيا يتقد حماسا ووطنية، وعرفته مثقفا لامعا، متنوع الثقافة باللغتين : العربية والفرنسية، وعرفته كاتبا مقتدرا، خضع له القلم وهو في ريعان شبابه، فكان الكاتب القدير، والنصيح البليغ، وعرفته في السجن حيث قضى أربع سنين بين ثلاثة سجون، دفاعا وتضحية في سبيل وطنه، فما وهن ولا ضعف، وعرفته كرفيق، وصديق، وأخ شقيق، فكان مثال الصداقة والوفاء. وهذا الكتاب الذي أقدمه للقراء تعريفا به، واعترافا بجميله لوطنه، إن هو إلا لتسجيل ملامح من حياته. أرجو أن يتمها الباحثون، عندما يراجعون ما كتبه وما حرره قلمه في مختلف المجالات، ومن جملتها المجالات السياسية فيما كتبه خصوصا افتتاحياته في جريدة (العلم)، وقبلها في جريدة (المغرب اليومية) فليرحم الله أخانا قاسما وليجازيه على ما قدم من الصالحات.

أ.ق